القسم الأول

أسس عقيدية

١- الوحي إلى رسول الله

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)

الشورى: ٥١

٢- إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠)

النجم: ٤- ١٠

٣- إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً (١٦٤)

النساء١٦٣، ١٦٤

٤- ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ

الإسراء: ٣٩

obeikandl.com

الأحاديث:

١- قال رسول الله صلى الله عليه وسَّلم: إن روح القدس نفث في روعي أن نَفْسًا لن تموت حتى تستكملَ رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب (رواه صحيح ابن حبان).

٢- عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوَحْي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: أحياناً يأتيني مثل صَلْصلة الجرس وهو أشَدُّه علىَّ فيَفْصُم [١] عنى وقد وعيتُ ما قال، وأحيانا يتمثَّل لي الملك رجلا، فيكلِّمني فأعي ما يقول. وقالت عائشة رضى الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد [٢] عرقا (رواه البخاري).

٣- عن عروة بن الزبير أن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: أول ما بُدِئ به رسول الله صلى الله عليه وسلَّم من الوحي الرؤيا الصادقة [٣] في النوم، فكان لا يرى رُؤْيا إلا جاءت مثل فَلَق [٤] الصبحِ، ثم حُبِّب إليه الخلاء[٥] فكان يخلو بغار حِراء [٦] فيتحنَّث[٧] فيه (وهو التعبد الليالي ذوات العدد) قبل أنْ ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك. ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوَّد لمثلها، حتى فجأة [٨] الحق، وهو في غار حِراء، فجاءه الملك، فقال اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني، فغطَّنِي [٩] حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني فقال لي اقرأْ قلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فَغطَّني الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلني، فقال: اقْرأْ، فقلت ما

---

(١) فيفصم: فينفصل.

(٢) يتفصَّد : يسيل.

(٣) في البخارى: الصالحة.

(٤) فلق: ضياء.

(٥) الخلاء: الخلوة.

(٦) غار حراء: غار : كهف ، وحراء : على بعد ثلاثة أميال من مكة على يسار الذاهب إلى منى.

(٧) يتحدث : فسر بالتعبد.

(٨) فجأة الحق: جاءه بغتة.

(٩) غطَّنى : عصرنى عصرا شديدا.

أنا بقارئ، فأخذني فغطَني الثالثة، حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يَرْجفُ فُواده [1] حتى دخل على خديجة بنت خويلد زوجته، فقال: زَمِّلوني [2]، زَمِّلوني، فزمِّلوه، حتى ذهب عنه الرَّوْع (رواه البخاري مثل الحديث السابق في مفتتحه، ورواه مسلم في كتاب الإيمان في صحيحه).

٤- عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وهو يتحدَّث عن فترة الوحي: بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحِراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض فرُعبتُ منه، فرجعت، فقلت زَمِّلوني، فدثَّروني [3]، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ [4] فَاهْجُرْ﴾. ثم تتابع الوحي (رواه البخاري ومسلم).

والله تقدَّس اسمه- يذكر في الآية الأولى الطرق التي يكلم الله بها رسله، وهي ثلاثة ﴿ إِلَّا وَحْيًا﴾ ويراد به في الآية الإلهام بدليل مقابلته للكلام من وراء حجاب، وهو الطريق الثاني لكلام الله لموسى. والطريق الثالث: الكلام بإرسال ملك إلى الرسول يُبْلغه كلام الله، ويسمعه منه ويعيه، ويُبْلغه إلى الناس.

والإلهام هو ما يجده الرسول في نفسه دفعَة في اليقظة أو في الحلم، على نحو ما قلت السيدة عائشة في أول الحديث الثالث من أن أول ما بُدىء به الرسول صلَّى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وظل هذا الإلهام- أو الرؤيا الصادقة- يرافق الرسول طوال حياته كرؤياه أنه سيدخل مكة مع أصحابه آمنين محلَّقين رءوسهم ومقصِّرين، وفى ذلك يقول الله تبارك اسمه- ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

---

(١) في صحيح مسلم : ترجف بوادره، وهي ما بين المكنب والعنق.

(٢) زملونى : غطونى بالثياب.

(٣) دثرونى : غطونى.

(٤) الرجز : عبادة الأوثان.

وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ وتحققت الرؤيا، وكان الرسول قد بشَّر بها أصحابه. وهذا هو النوع الأول من الإلهام للرسل عن طريق الرؤيا الصادقة، والنوع الثاني الإلهام في اليقظة وهو ما أدخل فيه الإمام الشافعي السنة النبوية، أي أنها إلهام من الله لرسوله صلَّى الله عليه وسلم، ومن ذلك الحديث الأول إذ يقول الرسول إن روح القدس (أي جبريل) نَفَثَ في رُعى (أي ألهمني) أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها. فاتقوا الله وأجملوا (أي اتئدوا واعتدلوا في الطلب) فإن كل شخص ميسَّر لما خُلق له. والطريق الثاني من كلام الله لرسله طرق الكلام من وراء حجاب كما حدث لرسوله موسى في البقعة المباركة. وسأل موسى ربه رؤيته بعد تكليمه فحُجب عنها. والطريق الثالث في كلام الله لرسله أن يرسل إليهم رسولا أي ملَكًا (فيوحي بإذنه ما يشاء على نحو ما أرسل جبريل بالقرآن إلى رسولنا صلَّى الله عليه وسلم،

والله- جَلَ شأنه- يقول في آيات سورة النجم: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن المعلوم من السياق ﴿إلا وَحْيٌ﴾ أي عن طريق ملك هو جبريل ﴿يُوحِي﴾ إلى رسولكم محمد صلَّى الله عليه وسلم ﴿علَّمه﴾ القرآن ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ أي ملك شديد القوى، وهو جبريل ﴿ذو مرَّةٍ﴾ أي ذو طاقة قوية ﴿فاستوى﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ قبل هبوطه إلى الأرض ﴿ثم دنا﴾ أي قرب ﴿فتدلَّى﴾ أي أشد قربه من الرسول حتى أصبح منه ﴿قابَ﴾ أي قدر ﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أي أنه صار منه على بعد قوسين محددين فقط ﴿فأوحى﴾ ربّ العزة ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ محمد صلَّى الله عليه وسلم ﴿ما أوحى﴾ من القرآن العظيم.

وفى الحديث النبوي الثاني سأل الحارث بن هشام رضى الله عنه الرسول صلَّى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ فقال أحيانا يأتيني مثل صلصة الجرس، وهو أشدّه علىَّ، فينفصل عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول. وصوَّر الحديث الثالث بدء نزول الوحي على الرسول صلَّى الله عليه وسلم تصويرا بديعا، وكانت سورة العلق: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أول سورة نزلت عليه صلَّى الله عليه وسلم. وأبطأ عليه الوحي بعدها فترة، وتحدث الرسول صلَّى الله عليه وسلم عنها وما رآه في انتهائها قائلا كما في الحديث الرابع: بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرُعبت منه، فرجعت. فقلت زَمِّلونى، فدثَّروني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾- والمدثر بذلك ثانية السور نـزولا على الرسول صلَّى الله عليه وسلم.

ويخاطب الله- عزَّ شأنه- رسوله صلى الله عليه وسلم في آية سورة النساء قائلا: ﴿ إِنَّـا أَوْحَيْنَـا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، وفى ذلك ما يفيد أن الأنبياء يوحى إليهم مثل الرسل، غير أن الأنبياء لا يؤمرون- مثل الرسل- بالتبليغ وهم يدعون إلى الخير والعمل الـصالح، ولكـن دون تبشير بثواب وإنذار بعذاب. ونوح أول رسول في الأرض ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ (ابنه من هاجر المصرية) ﴿وإسحاق ﴾ (بن إبراهيم من سارة ابنة عمه فيما يقال) ﴿ويعقوب ﴾ (بن إسحاق الملقب بإسرائيـل) ﴿والأسـباط﴾ (أي أسـباط إسـحاق وأحفـاده) ﴿وعيـسى بـن مـريم وأيوب﴾ وهو نبي مثل يعقوب وإسحاق) ويونس (رسـول نينـوى مدينـة الأشـوريين) وهـرون (أخو موسى مرسل منه إلى بنى إسرائيل) وسليمان (بن داود) وداود أول الله عليـه كتابـه الزبـور. ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ في آيات القرآن مثل هود ولوط وصالح وشعيب وإلياس واليسع وزكريا ويحيى ﴿ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ﴾ لم نذكرهم في القرآن ﴿ وَكَلَّـمَ اللهُ مُوسَـى تَكْلِـيمًا﴾ تشريفا له وتكريما.

ويقول الله- عزَّ سلطانه- لرسوله في الآية الرابعة عقب الوصايا الإحدى عشرة التـي ذكرهـا في سورة الإسراء في خمس عشرة آية من قوله تعالى:﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ إلى قوله ﴿مَكْرُوهًـا﴾. (ذلـك) أي ما ذكره من هذه الوصايا وما فيها من الأوامر والنواهي ﴿مِمَّا أَوْحَى إِلَيْـكَ رَبُّـكَ مِـنَ الْحِكْمَـةِ ﴾التي ينبغي على كل مسلم أن يعمل بها مخلصا صادقا.

٢- القرآن

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ

البقرة ١٨٥

٢- هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَاب

آل عمران ٧

٣- وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ

المائدة ٤٨

٤- قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً

الإسراء ٨٨

الأحاديث:

١- عن واثلة بن الأسقع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُنْزِلتْ صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لستٍّ مضين من ومضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان. (رواه ابن حنبل في مسنده وابن كثير في تفسيره)

٢- عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلا الآية الثانية وقال: فإذا

openkandil.com

رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمىَّ الله فأحذروهم. (رواه البخاري في تفسير الآية ومسلم في كتاب القدر من صحيحه وأبو داود في سنته).

٣- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن -معاشرَ الأنبياء- إخوةٌ لعَلاَّتٍ [١]، ديننا واحد. (رواه البخاري وابن كثير في تفسيره).

٤- عن أنس بن مالك وقد سُئل عن تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن. فقال: كان يمدَّ مدًّا، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ومدَّ بسم الله ومدَّ بالرحمن ومدَّ بالرحيم. (رواه البخاري في باب الترتيل في القراءة).

والله تبارك اسمه- في الآية الأولى يذكر أن القرآن أُنزل على رسوله محمد في شهر رمضان، وقد اختار هذا الشهر- جلَّ جلاله- لينزل فيه كتبه الإلهية على رسله: إبراهيم وموسى وعيسى كما يوضح ذلك الحديث الأول الذي رواه ابن حنبل في مسنده، وقد أُنزل القرآن- والرسول في سن الأربعين- في ليلة القَدْر كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقال أيضا ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ والله- بذلك- يذكر بَدْءَ نزول القرآن على رسوله. وقد أخذ ينزل بعد ذلك على الرسول مفرقا حسب الأحداث والوقائع طوال ثلاثة وعشرين عامًا. والقرآن هو اسم جميع الكلام الموحى به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم المدوَّن في المصاحف المشتمل على مائة وأربع عشرة سورة أولاها الفاتحة وآخرها سورة الناس. وأصل هذا الاسم مصدر كالغفران والشكران، والله اختاره علما على وحيه المنزَّل على رسوله محمد، وهو أشهر أسمائه، وأكثرها ذكرا في آياته ودورانا على ألسنة المسلمين. وله أسماء أخرى ذكرها الله في آياته أصلها مصادر، وأهمها خمسة: الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ والفُرْقان كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ والوَحي كما في مثل:﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ والذكر في مثل: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ والتنزيل في مثل: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. والآية فيه قدر من كلام الله محدود قد يطول كآية الدَّين في سورة البقرة، وقد يقصر حتى يصبح كلمة واحدة مثل: ﴿مدهامَّتان﴾ في سورة الرحمن. والسورة فيه مأخوذة من السور المحيط بالبناء، وهى مقدار معين

(١) بنو العلات : بنو الأمهات الضرائر.

obeikandi.com

من آيات القرآن معلومة الأول والآخر وأقلها ثلاث آيات مثل سورة الكوثر، وقد تطول إلى مائتين وست وثمانين آية مثل سورة البقرة. وأسماء السور وترتيب الآيات فيها بتوقيف من الرسول صلَّى الله عليه وسلم.

والله- جلَّ شانه- يقول في الآية الأولى إنه أنزل القرآن هُدًى وإرشادا للناس حتى يقيم الضلال والانحراف عن صراط الله المستقيم، ويقول إنه ﴿بينات﴾ أي دلائل وحجج تكشف عن الحقائق للمهدى. والفُرْقان: الفارق بين الرشد والضلال.

والله- تقدَّس اسمه- يقول في الآية الثانية إن في القرآن آيات محكمات ﴿مِنْ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي أصله ومرجعه، وهى آيات العقيدة والشريعة الإسلامية بأوامرها ونواهيها وآيات المواعظ وما يتصل بها من قصص الأنبياء. وفيه آيات متشابهات تقابل المحكمات، وهى قليلة بالقياس إلى الأولى وتدل على معان متشابهة ويمكن أن يفسَّر المحكم بما يتضح معناه مجرد سماعه، والمتشابه بما يحتاج إلى تفكير وتدبُّر مثل الآيات الكونية كخلق الله السماوات والكواكب والشمس والفَلَك والبحار والأنهار والأشجار والنباتات وتسخيرها جميعا لمشيئته الربانية، ومثل الآيات المتصلة برب العزة كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ- الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى- وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ- يَدُ اللهِّ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ- وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مما يحتاج إلى تأويل إذ الله مَنزَّه عن التجسيم وعن كل ما يفيد شبها بالآدميين. ويقول الله في الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي انحراف عن اتباع الحق﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أي يعكفون على الحديث والخوض فيه ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي الإغراء والإضلال لأتباعهم ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي تحريف معناه. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني: إذا رأيت الذي يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله (أي في الآية) فأحذروهم. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُّ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾: الذين فقهوا علم الكتاب وعرفوا احتمالات عباراته وتأويلها سليما بما يستقيم مع استعمالات الكلام العربي البليغ وما يجرى فيه من مجاز وتمثيل واستعارة ﴿يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ﴾ أي بالمتشابه ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾أي العقول السليمة الذين يتدبرون معاني الآيات تدبيرا سديدا. وكثير من أهل السنة يقفون في الآية على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُّ﴾ وحده ثم يقرءون ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

والآية الثالثة توضح موقف القرآن الكريم وشريعته الإسلامية إزاء التوراة وشريعتها اليهودية والإنجيل وشريعته المسيحية، فهو مصدق للشريعتين في توحيد الله وفى الأحكام التي لا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأمم والعصور، وفى ذلك يقول الرسول الحديث الثالث وهو أن الأنبياء في دعواتهم الدينية لعبادة الله وتوحيده كأنهم إخوة من أمهات ضرائر لأب واحد. والقرآن مهيمن على التوراة والإنجيل وشريعتيهما مسيطر عليهما يبطل وينسخ بعض الأحكام في الشريعتين لمصلحة الأمم كما قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ من آيات الكتب السماوية ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي نؤجلها ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ للمكلفين في الشريعة الإسلامية وتشهد لذلك الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف، إذ تنصُّ على أن الشريعة الإسلامية تضع عمن يسلم من اليهود والنصارى ﴿إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ في شريعتهما، وهى الأوامر والنواهي الشاقةْ المكلفون بها. والقرآن- بذلك- يهيمن على التوراة والإنجيل بنَسْخه لبعض أحكامها ووضعه بدلا منها أحكاما جديدة يَرْعى فيها المصلحة لعبادة أتباع الشريعة الإسلامية آخر الشرائع..

والآية الرابعة تذكر أن القرآن كتاب معجز بيانه وبلاغته وأنه لو اجتمعت الإنس والجن واتحدوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في الفصاحة والبلاغة ما استطاعوا سواء حين يتحدث عن عبادة الله ووحدانيته وجلاله أو عن خَلقْه للكون أو عن البعث والنشور أو عن الشريعة التي تحقق للناس السعادة في الدارين أو عن الآداب والمواعظ. وقد عجزت قريش والعرب عن أن يأتوا بما يماثله، ودخلت الجزيرة جميعا في دين الله، ومضى المسلمون ينشرون أضواء القرآن المعجزة الباهرة على دروب العالم ومسالكه من أواسط آسيا إلى جبال البرينية على حدود فرنسا.

ويشير الحديث الرابع إلى ما وضعه الله من آداب في تلاوة القرآن والاستماع إليه، أما في التلاوة فقال لرسوله في سورة المزمل: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ أي اقرأه على تمهل فكان يمدُّ الألفاظ كما يقول الحديث الرابع. وأحاديث كثيرة تدل على استحباب الترتيل وتحسين الصوت في القراءة كقول الرسول: زيِّنوا القرآن بأصواتكم. ويقول الله في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولذلك لا يجهر المصلون وراء الإمام فيما يجهر به، أما حين لا يجهر فيقرأ المصلون خلفه الفاتحة سرا. والقرآن الكريم يزيد على ستة آلاف آية واختلف

الأسلاف في المزيد فمنهم من قال المزيد نحو مائتين، ومنهم من زاد على ذلك. منها خمسمائة لأحكام الشريعة، وأكثر البقية للتوحيد وقصص الأنبياء والعظة.

obeikandl.com

٣- الله

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

الإخلاص: ١- ٤

٢- لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)

الأنبياء ٢٢

٣- ۞ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

الأنعام ٥٩

٤- لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

الشورى ١١

الأحاديث

١- عن عبادة بن الصامت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة (رواه البخاري).

٢- عن أبى موسى الأشعري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أحد أصبر على أذًى سمعه من الله: إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم (رواه البخاري، ومسلم بصحيحه في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم).

٣- عن ابن مسعود أنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك (رواه البخاري ومسلم).

٤- عن ابن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن إلا الله، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية في آخر سورة لقمان (رواه البخاري).

والله- تبارك وتعالى- يقول في آيات سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وكلمة ﴿هو﴾ ضمير تفسره الجملة التالية له، وهى ﴿اللَّهُ أَحَد﴾ والصوفية يطلقون (هو) على الله فيما اعتادوه من ذكر، فيهتفون: (هو- هو) بسكون الواو، وكأنها- عندهم تعيِّنه وحده، إذ لا يحسُّون موجودا بعيون بصائرهم سواه. و﴿اللَّهُ﴾ علم دال على الذات العلية دلالة مطلقة، يجمع كل معاني أسمائه الحسنى وما تصوره من التعظيم والتمجيد والتقديس والكمال والجلال والربوبية، و﴿أَحَدٌ﴾ اسم بمعنى واحد يقرر وحدانية الله من كل الوجوه: في الذات والصفات والأفعال والعبادة، أما أحديته أو وحدانيته في الذات فمعناها أنه مستقل بوجوده، وأن وجوده أزلى، ومنه انبثق الوجود كله وكائناته التي أوجدها بعد عدم، إنه واجب الوجود الذي لا أول لوجوده ولا آخر. وهو ﴿أَحَدٌ﴾ فلا إله سواه، وإن إشراك أي شيء أو أي قوة من قوى الطبيعة التي خلقها له في الألوهية شِرْك وكفر. وكان العرب في الجاهلية قد عبدوا آلهة متعددة من الكواكب السماوية مثل الشمس والقمر والزهرة ومن الطير مثل النسر ومن الشجر والصخر مثل مناة. وكان منهم من عبد إلهين: إلها للنور وإلها للظلمة مثل أهل إيران. وكان منهم من قال إن الله ثالث ثلاثة من الآلهة، فأعلن القرآن الكريم مرارا وتكرارا أن الله لا شريك له وأن كل من عبد غيره مشرك كافر يستحق غضب الله وعذابه الأليم، ولن يعفو عنه، ولن يغفر له كما قال تعلى في سورة النساء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾. ووحدانية الصفات تعني تنزيه الله فيها عن صفات المخلوقين من البشر، فهو منفرد بصفاته تفرده بذاته، وما جاء في القرآن الكريم من وصفه بأنه سميع أو بصير أو متكلم فإن ذلك لا يعنى أن لله- جلَّ شأنه- أذنا أو عينا أو لسانا أو جوارح كجوارح الإنسان، إذ هو فوق كل تكيُّفٍ حسى وكل تشكل مادى، إنما يعنى ذلك انكشاف الأشياء له، وأن هذه الأشياء تتعلق بذاته تعلق إدراك لا بجارحة شأن البشر. وصفات الله في القرآن الكريم، منها ما يصور عظمة الله وجلاله مثل: المتعال- العظيم- الحميد- المجيد- القدوس. ومنها ما يصور خلق الكون والوجود مثل: البارئ- المصور- الخالق- البديع.

ومنها ما يصور القدرة الإلهية مثل: القادر- القهار- المهيمن. ومنها ما يصور العلم الرباني مثل: العليم- الخبير- الحكيم. ومنها ما يصور رحمة الله بعباده مثل: الرءوف. الرحمن. الرحيم، إلى غير ذلك من صفات قد تلتقى بصفات البشر ولكنها تختلف عنها في الجنس والنوع هي وكل ما يتصل بالذات الإلهية. وأحدية أو وحدانية في الأفعال: وهى خلق الكون وتدبير قوانينه كقانون خلق الأشياء من زوجين كما قال تعلى في سورة يَس: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. ووراء هذا القانون قوانين أخرى منبثَّة في الكون تمسكه أن يزول: قوانين صانع الكون ومبدعه دون أي شريك، إذ لو كان له شريك أو شركاء لفسد الكون كما سيوضح ذلك في الآية التالية، إنه لصانع واحد أبدع كل ما في الوجود إبداعا يدل على تفرده في الخلق والتكوين. وأحدية الله في العبادة أو وحدانيته هي عبادته وحده، وكان العرب في الجاهلية يعبدون آلهة متعددة كما أسلفنا، فاستأصل الله في نفوسهم هذه العبادة الوثنية، وأصبحوا معتنقين لوحدانية الله مؤمنين بكتابه ورسوله وبالبعث والمعاد. وكل من آمن بذلك حقت له الجنة كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول: من شهد بوحدانية الله ولم يشرك به أحدا وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة.

﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ أي المقصود في المطالب والحاجات وحده، فهو الملجأ وهو الملاذ المستعان المستغاث، إنه الخالق الوهاب الحافظ، كل شيء بيده وفى قبضته، المحيى المميت، وكل حي يتجه إليه شاعرا بضعفه وأنه محتاج إلى عونه وبرِّه، وقد فتح- بلطفه- أبوابه أمام عباده ليسألوه ويُنيلهم ما يطلبون، وفى ذلك يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ وفى الحديث النبوي ما من مسلم يدعو بدعوى ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: أما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له، وإما أن يكفُّ عنه من السور بمثلها. ولا بد للداعي من حسن طاعته لربه في أوامره ونواهيه وشريعته، مع التضرع في الدعاء والثناء على الله. وينبغي أن يكون الدعاء في أغراض ومقاصد حسنة.

والله منزَّه.. كما في الآية الثالثة- عن أن يكون أبا للملائكة كما كان يقول العرب أو أبا لعزيز كما كان يقول اليهود أو أبا للمسيح كما يقول النصارى. وفى ذلك يقول جلَّ شأنه- في سورة

الأنعام: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنِي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والله ينزه نفسه عن مماثلة الآدميين في اتخاذ الصاحبة أو الزوجة واتخاذ الأولاد، وهو خلقهم جميعا.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم- كما في الحديث الثاني-لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم ويدفع عنهم كل أذى وشر، وكيف يكون المسيح إلها كما يقول المسيحيون، وهو مخلوق لربه حملت به أمه، ولما وضعته أرضعته مثل غيره من الأولاد، وكان هو وأمه السيدة مريم يأكلان الطعام كما في سورة المائدة. وينزِّه الله نفسه في الآية عن أن يكون مولودًا إذ لو كان مولودا لكان حادثا بعد عدم واحتاج إلى من يوجده وبطلت ألوهيته. ويختم الله آيات السورة بقوله:﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي ولم يكن إنسان مثيلا له فهو منزه عن الشبه بالمخلوقين تنزيها يليق به، ولا أحد يماثله في أي شيء من الأشياء. وقد رَدَّ بعنفٍ في القرآن الكريم مرارا وتكرارا على من جعلوا له أندادا أي أشباها، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

ويقول الله- تقدَّس اسمه- في آية سورة الأنبياء: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي في السماوات والأرض ﴿آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾أي لاختلَّ نظام الكون، إذ لو تعددت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفا بصفات الألوهية من الإرادة المطلقة والقدرة الكاملة على التصرف، مما ينشأ عنه بينهم تعارض في القدرة والإرادة، وأوضح الله ذلك في سورة المؤمنون فقال:﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾وانفرد به فلم ينتظم الوجود ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إذ كان كل منهم يطلب قهر الآخرين والعلو عليهم، فتتضارب إراداتهم ويتصارعون والغالب يكون هو الإله. ولو فرضنا أن للعالم إلهين أحدهما أراد خلق شيئا والآخر لم يرد ذلك، فإن حصل مراد أحدهما كان هو الله، وانتفت الألوهية عن الثاني لعجزه عن تنفيذ إرادته. والمشاهد في الكون تحت أبصار الخلق أنه منتظم غاية الانتظام ومتسق غاية الاتساق مما يدل على أن صانعه وواضع قوانينه إله واحد لا شبيه له ولا منازع. ووحدانية الله أساس الديانات السماوية جميعا، والقرآن ملئ بتثبيت هذه العقيدة وأن من يؤمن بأن لله ندا أو شريكا فقد كفر به واستحق عقابه وعذابه الأليم. ويسأل ابن مسعود- في الحديث الثالث- رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعظم الذنوب عند الله فيقول له: أن تجعل له نِدًّا أي شريكا وهو خلقك. وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل: أتدرى ما حق الله

على العباد؟ فقال الله ورسوله أعلم، فقال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، ثم قال الرسول له: أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك، ثم قال: أن لا يعذبهم.

ويقول الله- تقدس اسمه- في الآية الثالثة: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ وفسَّر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المفاتيح للغيب بخمسة أمور مغيبة عن الناس. كما جاء في الحديث الرابع وقرأ في بيانها آخر آية في سورة لقمان، وهى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي يوم القيامة ومتى يكون ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل وهل ينزل ليلا أو نهارا ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلمه أحد أذكر أو أنثى وبأى لون أو صورة ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ وهل تكسب قليلا أو كثيرا وماذا تكسب أخيرا أم شرا ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أفي موطنها أو خارجه وفى أي مكان.وهذه المغيبات الخمسة من أحوال الناس، سميت بمفاتيح الغيب لأنها مجهولة لهم. وتدل بقية آية الأنعام على أن علم الله يحيط بكل ما في البر والبحر من أشياء حتى الورقة حين تسقط من شجرتها وحتى الحبة من بذور النبات حين تُبْذَرُ في ظلمات الأرض وطبقاتها العميقة، وما يسقط من رطب ولا يابس ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي إلا في علمه- جَلَّ شأنه- والآية تثبت خطأ بعض فلاسفة الإسلام في قولهم إن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات.

والآية الرابعة تنزه الله عن أن يكون له مماثل إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس في الموجودات شيء مماثل له في صفات ذاته العلية، ويجمع أهل السنة والمعتزلة ومتكلموهم على تنزيهه عن الجوارح والأعضاء، وما ورد في القرآن الكريم مما قد يوهم تشبيها يثبته أهل السنة مع تنزيه الله- جَلَّ شأنه- عن ظاهرة إذ لا خلاف بينهم وبين المعتزلة في أن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأنه لا مثيل له ولا شبيه. أما المعتزلة فيؤولون ما يوهم تشبيها مثل تأويل وجه الله في سورة البقرة وغيرها بأنه ذاته ومثل ﴿عيني﴾ في صورة طه بأنها العلم والرعاية ومثل ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ في سورة الفتح بأنها قدرته. والقرآن- بذلك- ينزِّه الله تنزيها مطلقا عن شبهه بالإنسان وبأي شئ، تقدست ذاته وسمت سموا عظيما.

٤- محبة الله لعباده

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١ - قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

آل عمران ٣١

٢ - إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

التوبة ٤و٧

٣- ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ

البقرة ٢٧٢

٤ - وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً

الإنسان ٨

الأحاديث

١ - عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث قدسي يرويه عن ربِّه عز وجل: إذا تقرب العبد إليَّ شبرا تقربت إليه ذراعا، وإذا تقرَّب منى ذراعا تقربت منه باعا، وإذا أتاني مشيا أتيته هرولة (بلفظ البخاري في كتاب التوحيد، ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء).

٢ - عن أبى هريرة قال رسول الله: إن الله قال في حديث قدسي ما تقربَّ إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنَّه (رواه البخاري في كتاب الرقاق).

obeikandl.com

٣- عن أبى هريرة قال الرسول صلى الله عليه وسلم: إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل: إن الله تعالى يحبُّ فلانا فأحْبِه، فيحبه جبريل: وينادى في أهل السماء: إن الله.. يحبُّ فلانا فأحِبُّوهُ، فيحّبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض (رواه البخاري، ومسلم في كتاب البر والصلة).

٤- عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هل الدِّين إلا الحب في الله والبغض في الله (رواه مسلم وابن كثير في التفسير).

والله- عَّز وجل- يأمر في الآية الأولى رسوله أن يقول للمؤمنين ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي إن كنتم تريدون أن يسبغ الله عليكم محبته فاتبعوا شريعتي. ومحبتهم لله إنما هي لذاته ولكمالاته في خلقه للكون وما أشاع فيه من النظام، وكمالاته في الشريعة الإسلامية وما أشاع فيها من الرحمة والخير للإنسان. وتستلزم هذه المحبة من المسلم أن يطيع الله في أوامره ونواهيه ويجتنب كل ما حرَّمه ويغضبه، وأن يعبده حق عبادته ملتزما كل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، شاكرا لله هدايته إلى هذا الدين القويم، وشاكرا له أنعمه التي لا يحصيها عدد، حينئذ يضفي الله عليه محبته العظمى، وأي محبة! إنها محبة الله التي لا تماثلها محبة، إذ تعمره وتكتب له الغفران، ويفيض الله عليه من كرمه إذ هو أجود الأجودين، كما يصورها الحديثان الأول والثاني، فإن العبد المحب إذا تقرَّب إليه شبرا تقرب إليه ذراعا، وإذا تقرب ذراعا تقرب منه باعا، وإذا مشى إليه أتاه هرولة. وكل ذلك تمثيل في الجانبين، والمراد منه أن من أدَّى إلى ربه شيئا من الطاعات والعبادات فإنه يتقبلها ويجزيه عليها جزاءً مضاعفا، وكلما زاد فيها زاده الله في الرضا والثواب أضعافا مضاعفة.

والحديث الأول من الأحاديث الدالة على محبة الله لعباده الصالحين محبة تفوق الوصف، ومثله الحديث القدسي الثاني، والله فيه يقول إن أي عبد من عباده الصالحين إذا تقرَّب إليه بالنوافل وهي كل ما يتطوع به المسلم الصالح من أنواع العبادات كقراءة القرآن الكريم التي تعد من أعظم ما يتقرَّب به لربه، ومثلها الذكر القائل فيه رب العزة: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وبالمثل الورع والتوكل على الله حق التوكل والتقوى. والله يكرر في القرآن- كما في الآية الثانية، أنه يحب المتقين، ويقول الله

إن عبده الصالح لا يزال يتقرَّب إليه بالنوافل حتى يحبه، فإذا أحبه أثابه مثوبة كبرى، فصار حافظ سمعه الذي به يسمع وبصره الذي به يبصر ويده التي بها يبطش، ولا يبطش بها إلا أعداء الله وما أحلَّ له البطش به. ومعنى الحديث أن من يحبه الله يحفظ جوارحه وأعضاءه ويصونها بحيث لا يسمع ولا يبصر ولا يبطش بيده ولا يمشى بقدمه إلا فيما ورد به الشرع، والله معه دائما يعينه ويؤيده. والصوفية يستغلون هذا الحديث فيما يزعمونه من الاتحاد بالله وحلوله فيهم، وكأنهم يفهمونه فهما ظاهريا زاعمين أنه على حقيقته، تعالى الله عما يزعمون علوا كبيرا. والحديث الثالث يعرض صورة من صور الكرم الإلهي في الحب، فإن الله إذا أحبَّ شخصا أعلم بحبه له جبريل فأحبه، ونادى أهل السماء من الملائكة بأن الله يحبه فيحبونه، ويكتب له القبول بين أهل الأرض، فيوده كثيرون منهم. ويؤكد الحديث الرابع أن الدين ليس إلا الحب في الله، وكأنه يدعو المسلمين جميعا إلى محبة ربهم حتى ينالوا محبته ورضاه.

وقد أحبَّ الله ضعفاء الأمة الإسلامية من الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل وأبناء السبيل، ففرض لهم الزكاة في الشريعة الإسلامية، ووضعها في المرتبة العليَّة من العبادات، فلم يأمر بإقامة الصلاة في آية قرآنية إلا أمر معها بالزكاة وأن يقدم كل شخص من ماله حقا مقررا معلوما للضعفاء المذكورين آنفا وللصالح العام. وبذلك أصبح لهم حق ثابت في مال الأغنياء، وأضاف إليه الصدقة ودعا إليها ذوي اليسار دعوة واسعة، حتى ينالوا مثوبته ونعيم الآخرة الخالد، وسمَّاها تلطفا قرضا حسنا قائلا: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَّ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وكأن من يعطى فقيرا أو مسكينا أو يتيما محتاجا أو أرملة أو ابن سبيل إنما يعطى ربه، ويستثمره عنده استثمارا لا يمكن أن يبلغ مقداره استثمار في بنك من البنوك، إذ جعله يتضاعف إلى سبعمائة ضعف أو أكثر قائلا في سورة البقرة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهَّ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُّ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ويقول: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وعن أسامه بن زيد رض الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قمت على باب الجنة فإذا عامة مَنْ دخلها المساكين.

وهذا الحب الإلهي والعطف الرباني على ضعفاء المسلمين شفعه الله في القرآن الكريم بعطف مماثل على الفقراء والمحتاجين من المشركين، فقد ذكر المفسرون أن سبب نزول الآية الثالثة- كما قال ابن عباس- أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمر بأن لا تعطى الصدقة إلا للمسلمين، فامتنعوا أن يعطوها للمشركين من قريش، فنزلت الآية تقول للرسول إن إسلام هؤلاء المشركين الفقراء وهداهم ليس مفوضا إليك، بل هو مفوض لله، ويقول الله ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أي أن المتصدق إذا تصدق وقع أجره على الله، ولا عليه إن كان من أعطاه الصدقة مسلما أو مشركا إذ هو مثاب عليه كما تقول بقية الآية: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ وبذلك جوَّز الله الصدقة لفقراء الكفار المختلطين بالمسلمين عطفا منه ولطفا إذ هم من عباده. ويقول الله في وصف الأبرار بسورة الإنسان ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي وهم في حاجة إليه ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا﴾ من المسلمين ﴿وَأَسِيرًا﴾ من الكفار ويشهد لذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه يوم بدر ووقوع سبعين من قريش أسرى في أيدي المسلمين أن يكرموهم. وكل ذلك يشهد بعطف الله على الفقراء من عباده حنفاء مسلمين أو مشركين كافرين.

٥- محمد رسول الله

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللهِّ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً (٤٦)

الأحزاب: ٤٥، ٤٦

٢- لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)

التوبة:١٢٨

٣- لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِّ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَّ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَّ كَثِيراً (٢١)

الأحزاب:٢١

٤- وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)

القلم:٣، ٤

الأحاديث:

١- عن جابر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا، فجعل الجنادب[١] والفراش يقعن فيها وهو يَذبُّهن عنها، وأنا آخذٌ. بحُجَزِكم[٢] عن النار، وأنتم تفلَّتون من يديَّ (رواه مسلم في صحيحه بكتاب الفضائل).

---

(١) الجنادب: نوع من الجراد.

(٢) حجزكم : معاقد ثيابكم.

openkandil.com

٢- عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تُطْرُوني كما أطْرَت النصارى ابنَ مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله (رواه الترمذي في الشمائل).

٣- عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: إن كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس، فيُفْرَض عليهم (رواه البخاري ومسلم).

٤- سئُلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق الرسول صلَّى الله عليه وسلم، فقالت: كان خلقه القرآن (رواه ابن حنبل في مسنده).

والله- تقدَّس اسمه- في آيتي سورة الأحزاب يصف الرسول- صلَّى عليه وسلم- بخمس صفات أولها أنه شاهد، ولها تأويلان أنه شاهد بشريعته على شرائع الديانات السماوية السابقة بحيث تستبقى منها ما فيه مصلحة أمته والبشر، وتنسخ ما لا يتفق مع تلك المصلحة كما قال تعالى في سورة المائدة:﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ بشريعة كتابك التي تهيمن وتسيطر على ما قبلها من الشرائع بحيث تبطل منها ما لا يتفق ومصلحة العباد في عصر الرسول وبعد عصره. وكما قال- جَلَّ شأنه- في سورة الأعراف إن الرسول يأمر اليهود والنصارى بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي أوامر شريعتيهما الثقيلة. والتأويل الثاني لشاهد أن يكون الرسول شاهدا على أمته يوم القيامة كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي أمتك ﴿شهيدا﴾، ويقول جل شأنه: ﴿ومبشِّرًا﴾ أي مخبرا بأخبار مفرحة سارة لمن يتبعون دينك ويطيعون الله ورسوله ﴿ونذيرا﴾ للعاصيين لله ورسوله من المشركين والكفار بأن مصيرهم إلى النار وعذاب شديد. وما أروع الحديث الأول الذي ضرب به الرسول صلى الله عليه وسلم مثله مع قومه، وهو يريد أن ينجيهم من النار وعذاب ربه باعتناق دينه، بمثل رجل أوقد نارا والجنادب والفراش تقع فيها وهو يذبها عنها كما يذب الرسول قريشا والعرب عن النار الإلهية، وأنه ليأخذ بمعاقد ثيابهم عطفها عليهم، وهم أو بعبارة أدق مشركوهم يتفلَّتون من يديه. ويقول- جلَّ وعز- ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي داعيا الناس إلى عبادته وحده لا شريك له ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ آخر الصفات الخمس للرسول أي تهدى إلى الحق وشريعة الله كما يهدى السراج

الوضاء في المكان المظلم، وكما ينبلج نور الصباح في أعقاب الليل الداجي.

ويمتنُّ الله- تبارك اسمه- على العرب في آية سورة التوبة بأنه أرسل إليهم رسولا من ذات أنفسهم وصميم أنسابهم العريقة يتلو عليهم قرآنا بلغتهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ﴾ حسن ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فحري بهم أن يفخروا به ويتبعون ويلتفّوا حولك. ويقول- جَلَّ شأنه- ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي أنه يعزُّ عليه ويشقُّ ما يُعْنتكم ويصيبكم بعنتٍ وشِدَّة، ولذلك كانت شريعته سهلة يسيرة كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يُرِيدُ اللهُّ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ويقول في سورة الحج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها في الحديث الثالث: إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعُ العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيُفْرَض عليهم، ولذلك كان ينهى أصحابه عن كثرة السؤال في الأشياء، ومن قوله: دعوني ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأْتوا منه ما استطعتم. ويصفه الله بأنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي حريص على هدايتكم، بالمؤمنين ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾وهما وصفان إلهيان لربه في مثل قوله تعالى:﴿إِنَّ اللهَّ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وقد أسبغهما على رسوله، وكان رءوفا بالمؤمنين منتهى الرأفة، رحيما بهم منتهى الرحمة، رفيقا بهم منتهى الرفق لين الجانب، وفى ذلك يقول الله في سورة آل عمران: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهَّ لِنْتَ لَهُمْ﴾ ولان قلبك تأليفا لهم وتحببًّا. وتقول السيدة عائشة أم المؤمنين إنه لم يكن ينتصر لنفسه من مظلمة ظُلم بها قط ولا يجزى السيئة بالسيئة.

ويشهد له خادمه أنس بن مالك برفقه ورأفته المتناهية إذ يقول: لزمت رسول الله صلَّى الله عليه وسلم عشر سنوات فما قال لي: أفٍّ قط، ولا قال لشيء فعلتهُ لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته. ووصفته السيدة خديجة أم المؤمنين حين نزل عليه الوحي لأول مرة وجاءها فزعا، فطمأنته قائلة: إنك لتصل الرحم وتحمل الكلَّ[1] وتُكسب المعدوم[2] وتَقْرى[3] الضَّيْفَ وتعين على نوائب الحق. وهى بذلك تصفه قبل مبعثه وأنه كان يحسن إلى ذوى رحمه ويكفل الكلَّ أي المعنى الضعيف

(١) الكل : المعيى الضعيف.

(٢) المعدوم : الفقير.

(٣) وتقري : تكرم وتطعم.

ويكسب المعدوم الفقير ويكرم الضيق ويساعد فيما ينزل بالقرشيين من كوارث وخطوب. وإذا كانت هذه خصاله قبل البعثة، فما بالنا به وقد أصبح نورا هاديا لأمته؟ لا ريب في أن كل هذه الأخلاق الحميدة تضاعفت. ووصاياه بعون الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل والضعفاء وأبناء السبيل لا تحصى، وسُئل أي الإسلام خير؟ فقال: أفضل الإسلام إطعام الجائع. ودائما رأفة ورفق ورحمة، ولكأنه أب شفيق لكل أصحابه سهل الخلق لا يذم أحدا ولا يعيبه، ودائما يعفو ويصفح حتى عن أعدائه.

والآية الثالثة دعوة من الله- جلَّ شأنه- للمسلمين كي يأتوا بالرسول صلَّى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وجميع أحواله ويقتدوا به في كل ما حثَّهم عليه من أصول العقيدة الإسلامية وفروعها من الأوامر والنواهي والأخلاق الكريمة من مثل الحلم والصبر والكرم والشجاعة والعفة والوفاء بالعهد ورعاية المرأة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشفقة على المسلمين ورحمتهم وستر عوراتهم وبر الوالدين والأقارب والأمانة والإخلاص والمبادرة إلى كل ما فيه خير للأمة والجماعة مع التمسك بفضيلة العقل ونبذ السحر والكهانة والخرافة والشعوذة ونبذ الظلم وتحريم شهادة الزور. ومن خير ما يصور اقتداء المسلمين بالرسول على مر العصور واتخاذه مثلا أعلى لأسمى الفضائل قول ابن حزم الأندلسي في كتابه: الأخلاق والسِّير في مداواة النفوس: مَنْ أراد خَيْرَ الآخرة وحكمة الدنيا وعَدْل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فَلْيَقْتد بمحمد رسول الله صلَى الله عليه وسلم وليستعمل أخلاقه وسِيَره ما أمكنه. أعاننا الله على الاستغناء به بمنِّه وكرمه.

والله- جَلَّ شأنه- يقول لرسوله صلَى الله عليه وسلم في آيتي سورة القلم: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي أجرا متصلا غير منقطع على إبلاغك للناس رسالة ربك وصبرك على أذاهم، والأجر: الثواب، وهو عناية الله ورعايته ونصره له في الدنيا، ورعاية وعناية وثواب أكبر في الآخرة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ والخلق هو الخصال والشمائل الخبرة، والخلق العظيم هو الخلق المثالي الرفيع. وهى شهادة ربانية ليس وراءها شهادة، وسُئلت السيدة عائشة أم المؤمنين عن خلقه فقالت لسائلها: كان خلقه القرآن أي كل ما فيه من الأخلاق الحميدة، وبحق قال: إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق بفضل ما أسبعه الله عليه من الشمائل والمحامد. ومن أهم محامده

وفضائله التواضع الكريم، وفى الحديث أنه خرج على نفر من أصحابه، فقاموا له إجلالا، فنهاهم عن ذلك قائلا: لا تقوموا لي كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا. وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان ينهى الصحابة عن المبالغة في الثناء عليه حتى لا يقعوا فيما وقع فيه النصارى من تأليه عيسى بن مريم وقولهم إنَّه ابن الله، ويقول إنما أنا عبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد. وكان لا يستشعر أي عظمة أو تجلة أو قدسية فذلك كله لله وحده. وهذه إحدى الفوارق الكبرى التي تفصل بين الإسلام ودين اليهود والنصارى، فليس فيه عبودية ولا قدسية للأشخاص، كما يحدث عند اليهود في تقديسهم لأحبارهم ولعُزَير وقولهم عنه إنه ابن الله، وكما يحدث عند النصارى في تقديسهم لرهبانهم وقولهم عن عيسى إنه ابن الله. وقد نهى الإسلام ورسوله عن عبادة الأشخاص وقدسيتهم، فالرسول- مثل صحابته- من عباد ربه، وفي الحديث النبوي أن رجلا قام بين يدي الرسول فأخذته رعدة شديدة وهيبة عظيمة، فبادره الرسول قائلا له: هَوِّنْ عليك فإني لست بملك ولا جبَّار، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد(١) بمكة. وسُرِّي عن الرجل وزال عنه التهيب والفزع ونطق بحاجته والرسول يهشُّ له. ولم يكتف الرسول بذلك فقد خطب في صحابته قائلاً: أيها الناس إني أوحى إلىَّ أن تواضعوا، ألا فَلْتتواضعوا، حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد، وكونوا عباد الله إخوانا. وكان يجالس الفقراء والمساكين ويعود مرضاهم ويعينهم عونا عظيما.

(١) القديد من اللحم ما قُطِّع ومُلِّح وجُفِّف في الشمس والهواء.

obeikandl.com

٦- السُّنَّة النبوية

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

النحل ٤٤

٢- فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

النساء ٥٩

٣- وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

الحشر ٧

٤- وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)

الأحزاب ٣٦

الأحاديث:

١- من أحاديث العمل بالسُّنَة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين عَضُّوا عليها بالنواجذ[١] (رواه الترمذي وأبو داود).

٢- وعن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمرْ فأْتوا منه ما استطعتم (رواه البخاري ومسلم وابن حنبل والترمذي).

٣- عن أبي موسى الأشعري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن مثلَ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء فأنبتت كَلأً. فذلك مثل مَنْ فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلِم وعَلَّم، ومثلُ مَنْ لم يرفع بذلك

(١) النواجذ : الأضراس.

obeikandl.com

رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلتُ به (رواه البخاري في كتاب العلم ومسلم في كتاب الفضائل). ويابسه.

٤- عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ كذب عليَّ متعمَدًا فَلْيتبوَّأْ مَقْعِدَه من النار (رواه البخاري في كتاب العلم ومسلم في المقدمة).

والله- تقدس اسمه- في الآية الأولى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن الكريم وما فيه من الشريعة الإسلامية ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ بيانا دقيقا ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من أصول الدين وأحكامه التي ذكرت فيه مجملة، فالصلاة والزكاة مثلا ذُكرتا في القرآن مرارا مجملتين بمثل قوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) والرسول هو الذي بيَّن الصلوات الخمس: الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء وكيفية كل منها وما يكون فيها من تكبير الله والقرآن وذكر الله وتسبيحه واختتامها بالتحيات، كما بَيَّن الرسول القواعد في الزكاة وأَنْصِبَتها من الزروع والأنعام والأموال وتوزيعها على الفقراء والمستحقين لها.

وسُمِّي بيان الرسول صلى الله عليه وسلم لأحكام القرآن ونواهيه باسم الحديث وباسم السنة، والحديث لغة الجديد ضد القديم، وفى اصطلاح المحدِّثين كل ما رُوى عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقي مثل صفته بأنه كان أبيض مشربا بحمرة أو وصف خلقي مثل نعته بالحلْم والكرم والعفو والصفح عند المقدرة، وأضاف بعض المحدثين إلى ذلك سيرته الطاهرة قبل البعثة. والمراد بالتقرير أن يفعل أحد فعلا أو يقول قولا أمام الرسول ويسكت الرسول ولا ينكره. والسنة أصلها اللغوي العادة والطريقة، وفى اصطلاح المحدثين العادة أو الطريقة الشرعية التي جرى عمل المسلمين بها في حياة الرسول، وعادة تكون حديثا للرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به ونهى عنه وندب إليه قولا أو فعلا، ولذلك يقال: أصول الشرع: الكتاب والسنة أي القرآن والحديث. وهى بذلك- مثل الحديث- مُبَيِّنة للقرآن الكريم وشارحة له ومصورة لأحكام الشريعة عمليا ولمبادئ الإسلام الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية. والرسول- صلى الله عليه وسلم- يوصى المسلمين في الحديث الأول أن يعضّوا عليها بالنواجد أي يحرصوا عليها وعلى ما تحمل من أوامر الشريعة ونواهيها، فإنها مبينة لها وموضحة.

ويقول الله- جَلَّ شأنه- في الآية الثانية للمؤمنين: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي في أي شيء من أصول الدين وفروعه وأحكامه ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى القرآن الكريم ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي إلى الرسول وسنته. وردّه إلى الرسول في حياته بعرضه عليه، أما بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى فبعرضه على أقواله وأفعاله التي تحصيها وتستوعبها السنة. والآية توجب على المسلم الاعتداد بالسنة أصلا أساسيا في الدين، ومن ينكرها ولا يعتد بها مطلقا يُعَدّ خارجا على أصول الإسلام، ولذلك أكمل الله الآية بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾ وكأن من لا يعترف بالسنة لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر أو المعاد. وحذَّر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين من إنكار السنة فقد روى أبو داود في سننه عن أبي رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا ألفينَّ(١) أحدكم متكئا على أريكته(٢) يأتيه الأمر مما أمرتُ أو نهيتُ عنه، فيقول: لا نَدْرى ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه. أي أنه ينكر السنة وما جاء بها من الأحاديث، ويقول نكتفي بالقرآن وما فيه من أحكام، وهو بذلك ينكر صريح السنة التي تعد جزءا لا يتجزَّأ من الدين الحنيف.

والآية الثالثة تأمر المسلمين أن يتقبَّلوا كل ما يأتيهم به الرسول صلَّى الله عليه وسلم ويبلِّغه إليهم من أوامر الشريعة وأحكامها، فيعملوا بها جميعا ممتثلين لأوامره وكافِّين عن نواهيه، وفي ذلك يقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم حديثه الثاني: إذا أمرتكم بأمر فَأْتوا منه ما استطعتم أي قدر ما تستطيعون، وهو تخفيف لما يأمر به حتى لا يشق على المسلمين، إذ الإسلام بنى على اليسر لا العسر. أما ما نهى عنه فأمر باجتنابه والكفِّ عنه كفا قاطعا. والآية الرابعة عامة في جميع الأمور الدينية، وتعمّ جميع المؤمنين رجالا ونساء، فلا يجوز لمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ﴾ الاختيار في قبوله أو رفضه. والمراد أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم وأحكامه الشرعية. وذِكْرُ الله مع الرسول للإشارة إلى أن طاعة الرسول طاعة الله كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. ويصور الحديث الثالث المتلقين عن الرسول للقرآن والسنة فيجعلهم ثلاثة أقسام: قسما كالأرض الطيبة تلقت غيثا فانتفعت به ونفعت الناس فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وهم الفقهاء والمعلمون للناس، وقسما كالأرض الصلبة تمسك الغيث لا

---

(١) ألفينَّ : أجدنَّ

(٢) الأريكة : مقعد منجَّد.

تنتفع به وينتفع الناس فيشربوه منه ويسقون ويزرعون وهم حاملو الشريعة لا ينتفعون بها وينتفع بها الناس، وقسمًا كالأرض المجدبة لا تمسك الغيث ولا تنبت عُشْبًا، وهم حاملو الشريعة لا ينتفعون بها ولا ينفعون بها الناس. وعمل الرسول- بقوة- على نشر السنة وما تحمل من أحاديثه، ونراه في خطبة حجة الوداع يعقب على كل حكم بقوله: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب». وكان يقول دائما للوفود العربية التي قدمت عليه من الجزيرة لإعلان إسلامها: «احفظوا أحاديثي وأخبروا بها مَنْ وراءكم من العشائر والقبائل» ومن أحاديثه المشهورة: نضَّر الله امرؤ سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها للناس.

وعادةً يتقدم نص الحديث النبوي في السنة رواته، ويسمون باسم السند، ولم يدون منه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلا معاهداته ورسائله إلى حكام بيزنطة وإيران والإمارات العربية لاعتناق الإسلام، وما أمر بكتابته للناس في أنصبة الزكاة، وإلا بعض أحاديث كتبها نفر من الصحابة أمثال عبد الله بن عمرو بن العاص. وفكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بخلافته في تدوين الحديث ثم عدل عن ذلك خشية التباسه بالقرآن، وظل الصحابة يروونه غالبا شفاها، وأخذ بعدهم ينتقل من جيل إلى جيل شفاها، وبذلك تكوَّن رواته أو بعبارة أدق تكونت أسانيده. وكان أول من أمر بتدوينه تدوينا عاما عمر بن عبد العزيز في خلافته (٩٩- ١٠١هـ) واستجاب له ابن شهاب الزهري، وأضاف إلى أحاديث الرسول أقوال الصحابة حملة الشريعة عن الرسول، وأضاف إليها الإمام مالك في كتابه الموطأ فتاوى التابعين. وكأنما كان الرسول يعرف ما سيحدث من وضع الفرق والأحزاب السياسية بعض الأحاديث على لسانه، فقال حديثه الرابع: مَنْ كذب عليَّ متعمدا فَلْيَتَبَوَّأ مقعده من النار. ونشأت- منذ القرن الثاني- لعلماء السنة حركة ضخمة لتنقية الأحاديث من كل زيف، وألفت فيه كتب كبرى بالغة الصحة مثل موطأ الإمام مالك الذي ذكرناه آنفا، ومثله كتب المساند التي تجمع أحاديث الصحابة، كل منهم على حدة، مثل مسند الإمام أحمد بن حنبل. وأُلِّفت في القرن الثالث الهجري كتب الصحاح الستة لأئمة المحدثين، وهى الجامع الصحيح للبخاري وصحيح مسلم وسنن ابن ماجه وسنن أبى داود وجامع الترمذي وسنن النسائي. وتعد تلك الكتب جميعا أمهات السنة والحديث وأصولها ومراجعها الوثيقة.

٧- الإسلام - الإيمان

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ

آل عمـــران ١٩

٢- وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ

آل عمـــران ٨٥

٣- لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

البقـرة ١٧٧

٤- الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

المـــائدة ٣

الأحاديث:

١- عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان (رواه البخاري في كتاب الإيمان وكذلك مسلم).

٢- عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه

obeikandl.com

أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلَّى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفَّيه على فَخِذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإِسلام؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: الإِسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا[١] قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإِيمان؟ قال الرسول: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر، وتؤمن بالقدر: خيره وشَرِّه قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإِحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: المسئول عنها ليس بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها قال: أن تلد الأمة ربَّتها، وأن ترى الحُفاةَ العُراة العالة[٢] رِعاءَ[٣] الشاة يتطاولون في البنيان. ثم انطلق (الرجل) فلبثت مَلِّيًا.[٤] ثم قال: يا عمر أتدرى من السائل ؟ قال الله ورسوله أعلم، قال الرسول: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم (رواه البخاري ومسلم في كتاب الإِيمان واللفظ لمسلم).

٣- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإِيمان بِضْعٌ[٥] وسبعون شُعْبة[٦] أو بضع وستون، وأفضلها قول لا إله إلا الله (رواه البخاري، ومسلم في كتاب الإِيمان).

٤- عن العباس بن عبد المطلب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ذاق طعَم الإِيمان مَنْ رضِى بالله ربًّا وبالإِسلام دينا وبمحمد رسولا (رواه مسلم في كتاب الإِيمان).

---

(١) سبيلا : قدرة.

(٢) العالة : الفقراء.

(٣) رعاء : رعاة.

(٤) مليا : فترة أو زمنا.

(٥) بضع : العدد من ثلاثة إلى تسعة.

(٦) شعبة هنا : خصلة.

والآية الأولى تقرر أن الدين عند الله الإسلام أي الدين الكامل، وأصل معنى الدين الجزاء ثم أطلق على عقيدة جماعة من الناس أو أمة، ومن ذلك قوله تعالى على لسان الرسول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ والإسلام علم على دين محمد صَّلى الله عليه وسلم وشريعته، وسُمِّى أتباعه باسم المسلمين، وهى تسمية ربانية مكا في قوله جَلَّ شأنه في سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وتتكرر الكلمة في القرآن كثيرا.

والإسلام من السلام ومعناه السلامة والأمان، واشتق منه أسلم إسلاما بمعنى خضع وانقاد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي اخضعوا وانقادوا له. ثم عَّم استعمال أسلم فيمن دخل في الدين الحنيف وأطاع الله ورسوله، ومنه كلمة الإسلام بمعنى الدين المحمدي. والآية الأولى تجعله الدين المقبول عند الله.

والآية الثانية تقرر أن من يعتنق دينا غير الإسلام بعد مجيئه وتبليغه له ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ فرسالة محمد صلَّى الله عليه وسلم عامة لجميع البشر، وهو ما لم يسبقه إليه رسول، إذ جميع الرسل بنصوص القرآن الكريم وآياته أرسلوا إلى أقوامهم فحسب، أمَّا الإسلام فأرسل إلى البشر جميعا كما قال- جَل شأنه- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾. ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم في الحديث الأول إن الإسلام بُنى على خمسة أركان هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان. والإسلام- بذلك- يشتمل على توحيد الله واعتناق الرسالة النبوية، وأعمال العبادة وهى الصلاة وما فيها من تلاوة القرآن ومن التكبير والتسبيح، والزكاة وما يؤديه المسلم من ماله للصالح العام وللفقراء والمساكين، والحج المفروض على المستطيع ماديا وصحيا وما فيه من نسك وذكر لله وعبادة، وصوم شهر رمضان ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾تبتلا لله. والإسلام- بذلك يطلق على أعمال العبادات في الدين الحنيف، كما يوضح ذلك أيضا الحديث الثاني حين سأل جبريل عليه السلام صلَّى الله عليه وسلم عن الإسلام ما هو؟ فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة؟ وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

والإيمان من الأمن بمعنى طمأنينة النفس وتصديقها لما جاء به الرسول، وسأل جبريل عليه السلام الرسول في الحديث الثاني عن الإيمان ما هو ؟ فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. والحديث يجعل الإيمان خاصا بالاعتقاد القلبي بالله وتوحيده، وما في العالم الغيبي من الملائكة الذين ينزلون بالوحي على قلوب الرسل، والاعتقاد القلبي بالرسل وما جاءوا به من كتب سماوية ختامها القرآن الكريم، وأيضا باليوم الآخر وأن الناس مبعوثون بعد موتهم للحساب على أعمالهم. وهذا الإيمان أو الاعتقاد القلبي في الحديث يقابله الإسلام الذي يطلق على أعمال العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج. وفرَّق القرآن الكريم بين الإسلام بمعنى الدخول في الدين الحنيف وبين الإيمان وهو التصديق القلبي في قوله تعالى بسورة الحجرات: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي دخلوا في الإسلام ولم يستحكم في قلوبهم كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

وتوسِّع الآية الثالثة معنى الإيمان، إذ تجعل البر أي الخير الكامل في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، ثم تضيف إلى ذلك الصدقة على ذوى الرحم واليتامى والمساكين وابن السبيل الغريب والسائلين المحتاجين ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي في فداء الأسرى وتحرير العبيد، وفى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لصالح المجتمع، والوفاء بالعهد والصبر ﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي البؤس والفقر ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي الضرر صحَّيًّا وغير صحيٍّ ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي في جهاد المشركين وقتالهم، ويختم الله الآية بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي حققوا الإيمان القلبي في العقيدة والأعمال الدينية. وبذلك يلتقي الإيمان في الآية بالإسلام وعباداته العملية وكل ما جاءت به شريعته من مبادئ خيرة في تربية المسلم الخلقية والاجتماعية، وهو ما جعل الرسول صلَّى الله عليه وسلم يقول: في الحديث الثالث الإيمان بضع وسبعون شعبة أي خصلة، وذكر من خصاله وشعبه توحيد الله، وفى رواية أخرى جعل من شعبه إماطة الأذى وتنحيته عن طريق المسلمين، وأهم من ذلك أنه جعله في الحديث الرابع مطابقا للإسلام إذ قال: مَنْ ذاق طعم الإيمان والمتاع به رضى بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولا. وبالمثل يلتقي الإسلام بالإيمان في مثل قوله تعالى: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أي أسلمت نفسي لله وجعلتها ملكا له أنا ومن اتبعني مما يقتضي اكتمال

العبودية لله وتمام الإيمان والإخلاص القلبي له والتصديق الكامل لكل ما غُيِّب عنا وأنبأنا به القرآن.

وبهذا المعنى وهو أن الإسلام يشمل الإيمان والتصديق القلبي أطلقه الله على الدين الحنيف وجعله علما عليه في آية سورة المائدة الرابعة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي شرعتكم وكل ما ارتبط بها من عقائد وأعمال وأوامر ونواه، بحيث أصبحت كاملة لا ينقصها شيء ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بنصركم على أعدائكم وانتشار دينكم ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ منذ اليوم وهو يوم نزول الآية في حجة الوداع، وهو إعلان ربَّاني واضح بأن اسم الدين الحنيف الإسلام، وسيظل اسمه على الدهر إلى أبد الآبدين.

obeikandl.com

٨- الصلاة- الزكاة

القرآن الكريم:

قال الله تعالى:

١- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

المائدة: ٦

٢- حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)

البقرة: ٢٣٨

٣- وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

البقرة: ٤٣

٤- مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

البقرة: ٢٤٥

الأحاديث

١- عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال رسول الله صَّلى الله عليه وسلم: ما منكم من أحد يتوضّأ فيسبغ الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيِّها شاء (رواه في كتاب الطهارة أبو داود، والترمذي والنسائي).

٢- عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم قال: صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفَذِّ[١] بسبع وعشرين درجة (رواه الإمام مالك في الموطَّأ وابن حنبل في مسنده والترمذي والنسائي وابن ماجة).

٣- عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم حين بعث معاذًا رضى الله عنه إلى اليمن قال له: ادْعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعْلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدّ على فقرائهم (رواه البخاري في باب وجوب الزكاة).

٤- في حديث قدسي قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: يقول الله- عزَّ وجَلَّ- يوم القيامة: يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال ابن آدم: يا ربِّ كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه (رواه مسلم).

والآية الأولى في شرع الوضوء والتيمم خلفا له استعدادا للصلاة والإخلاص فيها لله، ولذلك عُدَّ الوضوء والتيمم السابقان لها جزءا لا يتجزأ منها وفريضة مكتوبة لا تصح الصلاة بدونهما. وواضح أن الوضوء يرمز إلى أن الإسلام يحرص على نظافة المسلم إذ لا يزال يتوضأ لكل صلاة طوال اليوم، وهو والتيمم الذي تذكره الآية يومئان إلى أن المسلم يأتي الصلاة عن نية خالصة لوجه ربه. وقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا عزمتم فلا يجب عليه. وقد صلَّى الرسول صلَّى الله عليه وسلم يوم فتح مكة الصلوات الخمس بوضوء واحد، وكان يتوضأ عند كل صلاة في غير هذا اليوم استحبابا، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يداوم على الوضوء لكل صلاة اقتداء به. والوضوء كما ذكرت الآية غسل الوجوه والأيدي إلى المرافق والمسح بالرءوس وغَسل الأرجل إلى الكعبين، وما زاد على ذلك من المضمضة والاستنشاق سنة عند مالك والشافعي وأبى حنيفة، وواجب عند ابن حنبل. ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم في الحديث الأول: مَنْ أسبغ (أي أتمَّ) الوضوء وشهد بوحدانية الله ورسالة محمد عبده ورسوله فُتحت له أبواب الجنة الثمانية

(١) الفذ : المنفرد.

ليدخل فيها من أيِّها أراد. ويقول الله إن التطهر واجب بعد الجنابة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أي أحدثتم ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي أفضيتم إليهن ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ للوضوء في هذه الأحوال ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي اقصدوا وجه الأرض الطيب من التراب ونحوه. والتيمم في الشريعة: استعمال التراب في الوجه واليدين على هيئة مخصوصة.

ويأمر الله- تقدس اسمه- في الآية الثانية المؤمنين بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى. والصلاة شعار عقيدة الإسلام وأهم أركانه بعد الإيمان بالله ورسوله، وهى خمس صلوات يوميا، الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكل صلاة إنما هي تكبير لله وتلاوة لفاتحة الكتاب وما فيها من الإيمان بوحدانية الله وصفاته والبعث والمعاد، والاستعانة به، والهداية إلى أعمال البر والخير، مع تسبيحه مرارًا، ومع السلام على رسوله والصلاة عليه. وهى راحة لنفس المسلم وطمأنينة، وفى الحديث أن الرسول صلَّى الله عليه وسلم كان كلما حزبه أمر فزع إلى الصلاة لتفرِّج عنه ما نزل به. ومن شأن الإخلاص في أدائها أن يدفع المسلم إلى أن يحيى حياة طيبة يستشعر فيها الفضائل التي حضَّ عليها الدين الحنيف. وإن أدركه ارتكاب لبعض الخطيئات والآثام غسلتها صلاته المتكررة خمس مرات يوميا، وفى ذلك يقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم في حديث رواه البخاري ومسلم عن أبى هريرة أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنِه شئ؟ قالوا: لا يبقى من درنه شئ، قال: فذلك مَثَلُ الصلوات الخمس، يمحو الله بهنَّ الخطايا. وهو تمثيل رائع، فالصلوات الخمس كنهرٍ جارٍ متدفق على أبواب المسلمين، وكما أن النهر يغسل الدرن والوسخ الحَسِّي فإن نهر الصلوات الخمس الرَّبّاني يغسل الوسخ والدرن المعنوي من الذنوب والآثام ويمحوها محوا.

والصلاة الوسطى في الآية اختُلف فيها فقيل هي الصبح لتوسطها بين صلاة الليل: المغرب والعشاء وصلاة النهار: الظهر والعصر، وأيضا فإن الله خصَّها بالذكر في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ وهو قول عمر وابنه عبد الله والسيدتين عائشة وحفظة وعلى والإمامين مالك والشافعى. وقيل بل هي العصر لتوسطه بين الصبح والظهر والمغرب والعشاء، وهو قول ابن مسعود وأبى هريرة وابن عباس والإمام أبى حنيفة. ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ المراد بالقيام هنا القيام في الصلاة، وقانتين أي خاشعين متذللين. وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قوله: مهما

ركعت للصلاة حتى يصبح جسمك محنيًّا كالسَّرْج، ومهما صمت حتى تصبح مشدودا كوتر القوس فإن الله لن يقبل أعمالك حتى تضم إليها التذلل. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحضُّ بقوة على صلاة المسلمين في المساجد أو بيوت الله، من ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة من أنه قال: من تطهَّر (أي توضَّأ) في بيته، ثم مضى إلى بيت (أي مسجد) من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة. وكان يقصد بذلك أن ينتظم المسلم- ما استطاع- في صلاة الجماعة بالمساجد، لأن في ذلك دعما للإخاء والمساواة الصادقة بينه وبين المسلمين، إذ يقف معهم في الصلاة خاشعا ضارعا لربه، يكبِّر معهم ويركع ويسجد متوجها بقلبه إلى الله مستعينا به ومستغفرا دون أي شعور بالتفاوت بينه وبين أحد من إخوانه المسلمين. ومن أجل هذه الغاية من توثيق رابطة الأخوة بين المسلمين نوَّه الرسول صلى الله عليه وسلم بصلاة الجماعة في المساجد مرارا وتكرارا بمثل قوله في الحديث الثاني إن الصلاة في الجماعة أفضل من صلاة المنفرد وحده بسبع وعشرين درجة، وقيل إن الجماعة في الحديث أعم من أن تكون صلاتها في المسجد أو في غيره حيث كانت.

والقرآن الكريم يقرن الزكاة بالصلاة في الآية الثالثة وفى كثير من الآيات، وهى مثل الصلاة فريضة مكتوبة على كل مسلم، إذ أراد الله للمسلمين أن يكونوا أمة مثالية يسود فيهم البر والتعاطف بين المسلم وأخيه وبين المسلم والمصلحة العامة للأمة فهو لا يعيش لنفسه وحدها، بل يعيش أيضا للجماعة، ومن أجل ذلك وُضع في الإسلام نظام الزكاة، وعدَّتها الشريعة ركنا أساسيا في الدين الحنيف، فواجب على كل مسلم أن يقدم للفقراء من ماله سنويا حقا مكتوبا معلوما عليه، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم حديثه الثالث إذ يوصى معاذ بن جبل حين بعثه إلى أهل اليمن أن يأخذهم بالرفق واللين، فيدعوهم أولا إلى الشهادة بوحدانية الله وأنه رسول منه إلى الناس فإن آمنوا بذلك فقل لهم إن الله افترض عليكم خمس صلوات فإن آمنوا بذلك وأدَّوا الصلاة فقل لهم إن الله افترض عليكم صدقة (أي زكاة) تؤخذ من أغنيائكم وترد على فقرائكم. وارتضوا الزكاة كما ارتضوا الصلاة، ودخلوا في دين الله أفواجا. ومعروف أن الزكاة في الإسلام هي: العشر في حصيدة الأرض التي تزرع دون مئونة، ونصف العشر في حصيدة الأرض التي تزرع بالآلات، وربع العشر في رءوس الأموال وبالمثل في عروض التجارة.

والإسلام - بذلك- يقيم ضربا من العدالة الاجتماعية في الأمة، إذ جعل واجبا على المسلم الغنى أن يردَّ بعض ماله على الفقير وأشباهه المذكورين في آية مصارف الصدقات بسورة التوبة، وسنفصل القول عنهم بحديثنا عن الصدقة في غير هذا الموضع. وبذلك يترابط الأغنياء في الأمة مع الفقراء وأشباههم ترابطا اقتصاديا، وهو ترابط أوجبه الإسلام كما رأينا، ولذلك كان أبو بكر خليفة الرسول الأول مصيبا كل الإصابة حين رأى قتال مانعي الزكاة من العرب، إذ رأى في ذلك نقضا لركن من أركان الإسلام الخمسة وخروجا على الدين الحنيف. ولما راجعه عمر بن الخطاب في عزمه على قتالهم قائلا كيف نقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله. فرد عليه أبو بكر قائلا: أليس قافل: إلا بحقِّها. لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، وجعلهم أبو بكر خارجين عن الإسلام مرتدين، ونشبت حروب الردة، وانتصر أبو بكر. وكان ذلك تثبيتا للإسلام ورسالته الدينية، وهى مفخرة عظيمة له على مدار الزمن، وأرفقها بالفتوح الإسلامية وإرسال الجيوش للجهاد في سبيل الله، وهى مفخرة عظيمة ثانية له.

ويقول الله- عزَّ شأنه- في الآية الرابعة: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَّ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي يُسْلفه أو يقدم له سلفا صدقة مفروضة وهى الزكاة أو صدقة مندوبة وسماها الله قرضا لما سيقدِّم لصاحبها من الجزاء المضاعف عليها، ونعت الله القرض بالحسن يريد أنه لا يخالطه أذى من رياء أو تفاخر، ووعد المقرض بأنه سيضاعف جزاءه ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ويقول إنه ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ أي أنه يقبض الصدقات، ويبسط أو يتوسع في الجزاء عليها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فترون جزاءها العظيم. ولما تلا الرسول الآية على الصحابة قال له أبو الدحداح الأنصاري: أو يريد الله منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح قال: أرني يدك، فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربى- عزَّ وجلَّ- حائطي (بستاني) وكان فيه ستمائة نخلة. فبشره الرسول بالجنة بُشْرى عظيمة. وآيات كثيرة يعد الله فيها المسلم الذي يبذل الصدقة المفروضة وهى الزكاة والصدقة المندوبة بالجزاء العظيم يوم القيام، وبالمثل أحاديث كثيرة تحث على الصدقتين، مثل الحديث القدسي الرابع الذي يقول الله فيه لبعض عباده يوم القيامة: طلبتُ منك الطعام فلم تطعمني إذ طلبه منك عبد من عبادي فلم تطعمه، وكأن من يطعم فقير جائعا يطعم الله. وما أعظمها من منَّة على عباده الفقراء والمساكين.

٩- الصيام- الحَجّ

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

البقرة ١٨٥

٢-وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ

البقرة ١٨٧

٣- إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

آل عمران ٩٦، ٩٧

٤- الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)

البقرة ١٩٧

الأحاديث

١- عن أبي هُرَيْرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (في حديث قدسي): قال الله: كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيامَ فإنه لي وأنا أجْزِي به، والصِّيامُ جُنَّةٌ[١]، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتله فَلْيَقُلْ إنِّي امرؤٌ صائم، والذي نَفسُ

(١) جُنَّة : وقاية من الشهوات.

obeikandl.com

محمد بيده لخُلوف فَمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المِسْكِ. وللصائم فَرْحتان يَفْرحُهما، إذا أفطر فَرِحَ، وإذا لقي ربَّه فَرِح بصومه (رواه البخاري ومسلم في كتاب الصوم).

٢- وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ صام رمضان إيمانا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه (رواه البخاري ومسلم في كتاب الصوم).

٣- وعن أبى هريرة: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحجَّ فحجُّوا، فقال رجل: أكلَّ عامٍ يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قلتُ نعم لوجبتْ ولما استطعتم، ثم قال: ذَروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فَأْتُوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه (رواه مسلم في كتاب الحج).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ حجَّ لله فلم يَرْفُث ولم يَفْسقُ رجع كيوم ولدته أمه (رواه البخاري في كتاب الحج).

والله- تقدَّس اسمه- يقول في الآية الأولى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وهو الشهر التاسع القمري في السنة العربية التي تفتتح بالمحرم، وقد تشرَّف بإنزال القرآن فيه ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ وإرشادا لهم إلى الدين الحنيف كي يؤمنوا به ويتبعوا رسوله ﴿وَبَيِّنَاتٍ ﴾ أي ودلائل وحججا بيِّنةً واضحة على صحة ما جاء به ﴿مِنَ الْهُدَى﴾ المضيء المنافي للضلال المظلم ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ الفارق بين الحق المرسل به محمد والباطل الوثني الذي عبده العرب قبل الإسلام ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ﴾ أي حضره في بلده أو موطنه، وقيل شهده أي رأى هلاله الذي يثبت بدءه كما أوضحتْ ذلك السنة بحديث: صوموا لرؤيته (أي الهلال) وأفطروا لرؤيته (أي في أول شوال) فإنْ غُمَّ عليكم (أي لم تروه) فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما. ﴿فَلْيَصُمْه﴾ أي إن صيام شهر رمضان فريضة واجبة على كل مسلم ومسلمة.

والصيام في اللغة الإمساك، وفى الشرع الإمساك عن الطعام والشراب من الفجر إلى غروب الشمس، رياضة روحية للمسلم البالغ على ترك الشهوات والملذات فترات طوال شهر، ويتجه فيه بقلبه إلى ربَّه آملا أن يسمو إلى مرتبة التقوى التي يحثه القرآن دائما على بلوغها. وتلك إحدى فوائد

الصيام، فهو إعلاء للروح، وتطهير للنفس من شهواتها وملذاتها، ومحاولة لبلوغ المسلم مرتبة التقوى المنشودة، وهو غذاء قوى لتمرينه على الصبر وتحمله لمشاق الحياة في السلم والحرب. ومن شأن جوع الأغنياء وظمئهم فيه أن يجعلهم يعطفون ويشفقون على إخوانهم الفقراء في الأمة، فيمدوا لهم يد العون والمساعدة بالمال والطعام، وبذلك يتوطد ما يريده الإسلام لأتباعه من الإخاء الحقيقي والمساواة مثلما وطدتهما الزكاة والصلاة. ويريد الله بعباده المسلمين البالغين في الصيام اليسر قائلا: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وبذلك أُعْفى المريض والمسافر والمرأة في عادتها الشهرية من الصيام، على أن يؤدوا في غير رمضان هذا الصيام في أيام أخر بعدد أيام إفطارهم. واختلف الفقهاء في المرض ومقداره، وأولى الآراء أنه المرض الذي يسبِّب مشقة للصائم، إذ أطلق الله المرض ولم يحدِّده، أما السفر فإن شاء المسلم الإفطار كما رخصت له الآية أفطر، وإن شاء صام لأحاديث كثيرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك. ويصور الحديث الأول- وهو حديث قدسي- مدى ما للصيام عند الله من ثواب عظيم، وفيه يقول الله: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فهو لي وأنا أجزى به أي جزاءً عظيما. ويقول الله في هذا الحديث القدسي: الصيام جُنَّة أي وقاية من التورط في الآثام الدنيوية ومن عذاب الله في الآخرة ومن الأمراض التي يسبِّبها الإفراط في الملذات والمأكولات. ويطلب الله من المسلم في صيامه أن يحافظ فيه على سموه الروحي، فلا يرفث أي لا يتكلم بكلام فاحش لزوجته أو غيرها وأن لا يصخب فيُعْلى صوته غذبا أو استياء، وإن سبَّه أحد وشتمه أو نازعه وخاصمه فَلْيَقُلْ له إني صائم، لعله يزدجر ويكفّ عن سبِّه ومخاصمته. ويقسم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن خُلوف الصائم أي رائحة فمه المتغيرة من جوعه أطيب عند الله من رائحة المسك. وللصائم فرحتان: فرحة عاجلة في الدنيا حين يفطر، وفرحة آجلة في الآخرة لما سيرى من ثوابه حين يلقى ربه. ومعروف أنه رُخِّص للشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم أن يفطر ويطعم عن كل يوم أفطره مسكينا.

ورمضان وحده هو الذي فُرض فيه الصوم ويستحبُّ صوم ستة أيام من شوال بعده لقوله صلى الله عليه وسلم: من صام رمضان ثم أتبعه ستة من شوال كان كصيام الدهر. ولا يدخل فيها يوم العيد. كما يستحب صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء. ويقول الله- جَلَّ شأنه- في الآية: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ واليسر دائما صفة أساسية في الشريعة الإسلامية. وذكر الله

ذلك عقب فريضة الصيام لما فيها من المشقة إيماء إلى أنه أراد بها اليسر على المسلم إذ خصَّ شهرا من شهور السنة بتلك الرياضة الروحية تطهيرا لجسمه وسموا بإقباله على الله ولفتا قويا إلى عون إخوانه من الفقراء والأرامل والمساكين. ويقول الله إنه رخص للمريض والمسافر الإفطار على أن يصوما أياما أخرى بدلا منها في غير رمضان إكمالا لعدة الشهر. وحري بالمسلمين أن يكبِّروا الله ويعظموه لما شرع لهم من فريضة الصيام التي تصفيِّ قلوبهم وتشدّ أزرهم بعون المحتاجين من أمتهم وتعوِّدهم تحمل المشقة في الجهاد وغير الجهاد.

ويحدِّد الله في الآية الثانية فترة الصوم في اليوم وأنها تبدأ من الفجر حين يمتد بياض النهار على سواد الليل وعبر القرآن عن ذلك تعبيرا رائعا بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ أي خيط النهار من خيط الليل والظلام، ويقول- جل شأنه- ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي حتى غروب الشمس. وبدء الصيغة بكلمة» ثمَّ» التي تدل على التراخي يفيد أن الصيام يبدأ بعد الفجر لا مباشرة ولكن مع شيء من التراخي تيسيرا على الصائم. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني: (مَنْ صام رمضان إيمانا) أي صادقا بنية مخلصة (واحتسابا) أي محتسبا به قاصدا وجه ربه (غُفر له ما تقدم من ذنبه). ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة أي للصائمين.

والحج من أركان الإسلام مع الصيام والزكاة والصلاة، ويقول الله- تبارك اسمه- في آية آل عمران إن أول بيت لعبادته ﴿وُضِعَ﴾ أي أقيم وأنشئ لتوحيد الله ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ وبكة من أسماء مكة، ويريد- جَلَّ شأنه- البيت الحرام الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل، وقد جعله الله- كما يقول في الآية الثالثة- ﴿مُبَارَكًا﴾ زائدا في الخير لسكَّانه ومنارة هدى للناس، و ﴿فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي واضحة هي ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وما فيه من الصخرة التي رَقِى عليها لبناء الكعبة ورفع قواعدها، وكان قد اتخذ هذا المقام لصلاته وطوافه، ويقال إنه اتخذه ملاصقا للكعبة، وهو اليوم في مكان مستقل ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا﴾ من كل سوء. ويذكر الله فريضة الحج، وهي واجب على المكلف مرة في العمر بدليل الحديث الثالث لأبي هريرة وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الصحابة يوما فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجُوا، فقال رجل: أكلَّ عامٍ يا رسول الله وكرر ذلك ثلاث مرات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قلت: نعم لوجبت ولما

استطعتم، ثم قال: ذَروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فَأْتوا منه ما استطعتم. وفى الحديث ما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقصد قصدا إلى اليسر في الدين وشريعته، وفيه أن الحج واجب على المسلم مرة واحدة في العمر، وما يزيد على ذلك تطوع. ووجوبه إنما هو على المكلف السليم صحيا القادر ماديا، ويجوز لغير القادر من الشيوخ والمرضى أن ينيبوا عنهم، ويجوز أن يحج الطفل لما روى البخاري من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أجاز الحج لطفل ابن سبع سنوات، ولما روى مسلم من أن الرسول لقي ركبا في حجة الوداع، فرفعت له امرأة صبيا، وقالت له: ألهذا حجٌّ؟ قال نعم ولك أجر.

ويقول الله- تقدَّس اسمه- في الآية الأخيرة ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي أحرم به من الميقات ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي أن الكلام الفاحش يحرم عليه ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي ولا عصيان لله، بل طاعة وتلبية مستمرة ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ أي ولا مراء يجرُّ إلى سبٍّ ومخاصمة. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع مَنْ حَجَّ لله فلم يفحش في قوله ولم يأت معصية أو ذنبا رجع من حجه إلى موطنه وقد محيت عنه ذنوبه بعفو ربه، وأصبح كيوم ولادته طاهرا من كل ذنب ومعصية.

والحج نسك وعبادة لله وتلبية في الطواف بالكعبة والسعي بين الصفا والمروة وأداء شعائر الله في عرفة ومنى، وفيه يتوثق الإخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله معبودهم مؤمنين بوحدانيته شاكرين لأنعمه، وقد اجتمعوا من أطراف الأرض ومشارقها ومغاربها بملابس الإحرام التي ترمز إلى المساواة التامة بين الأغنياء والفقراء.

وكأنما الحج أريد به أن يكون مؤتمرا كبيرا للمسلمين يتدارسون فيه أحوالهم وحاضرهم ومستقبلهم في كل عام. وبحق يُعَدُّ الحج عيد المسلمين الأكبر، وفيه تقدَّم الأضاحي من الإبل وغيرها لإطعام أهل مكة وإطعام الفقراء والمحتاجين. وكانوا ينضحون دماء أضاحيهم على مذابحها وعلى حيطان الكعبة قربانا لله، فحرَّم الله ذلك عليهم قائلا: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ إنما شرعت الأضاحي لإطعام أهل مكة يوم عيدهم الأكبر وإطعام البؤساء والجائعين،

بعد أن أدَّى المسلمون قبل عيدهم مباشرة ما ينبغي عليهم من التلبية والتهليل والتكبير والتسبيح، ولذلك يقول الله إنما ﴿يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ أو بعبارة أخرى إنما ينال الله النسك الصادق الذي يرافقه الإِخلاص وطهارة القلب وصفاؤه.

obeikandl.com

١٠- آيات الله الكونية

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

البقرة: ١٦٣، ١٦٤

٢- وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

يس ٣٧- ٤٠

٣- وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

الرعد ٣، ٤

٤-سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)

الأعلى ١ - ٣

obeikandl.com

الأحاديث

١- عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنه لما نزلت آية آل عمران: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾ بكى الرسول ليلتها طويلا ثم قال: وَيلٌ لمن قرأها ولم يتفكر ليها (رواه ابن كثير في تفسير الآية).

٢- عن على بن أبى طالب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا عبادة كالتفكر (رواه ابن حبان).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بينما رجل مستلق على فراشه إذا رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال أشهد أن لكِ رباً وخالقا اللهم اغفر لي، فنظر الله إليه، فغفر له، رواه الثعلبي).

القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يضع الكون بنظامه وخلق كائناته وتدبيرها المحكم الدقيق أمام عقل الإنسان ليؤمن بأن له إلها واحدا صنعه عن قدرة وعلم وحكمة بالغة.

والله- تقدَّس اسمه- يقول في الآية الأولى إن إلهنا إله واحد، وأكد وحدانيته بقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، فالألوهية مقصورة عليه، وليس للناس إلهٌ سواه ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ المتفضل على الخلق بنعمه، بل أكثر من ذلك برحمته التي أسبغها على الإنسان. ويتكاثر في القرآن الاستدلال على وجود الله ووحدانيته بخلقه للكون أي للسماوات والأرض وصنعته العجيبة لهما. والسماوات جمع سماء، ويراد بها ما فوق الأرض من الفضاء الذي يشبه قبة زرقاء، وفيه تسبح الكواكب مزيِّنة له كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ أي بكواكب تزينها. وفى سورة البقرة وغيرها أنها سبع، وهو رمز لكثرتها وكثرة نجومها ومجرَّاتها وما تدل عليه من مدبر عظيم يقوم على نظامها ونظام ما يتصل بها من الأفلاك. ﴿وَالْأَرْضِ ﴾ أي خلقها بكل ما فيها من الناس والحيوانات والزروع والبقول والكلأ والثمار والفواكه والرياحين. وفى كل ذلك آيات دالة على موجدها ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بتعاقبهما وتفاوتهما طولا وقصرا ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ طافية على سطحه المذلل لها ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من التجارة وحمل الناس إلى البلد الذي يريدونه وللحج والجهاد ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ﴾ أي السحاب ﴿من مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

بأنواع النباتات والزروع والأشجار ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ من أنواع الدواب وحشيةً وأليفة، يرزقها ويعلم مأواها. وبجانب هذه الآيات العجيبة من خلق الله ﴿تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أي هبوبها بإذن الله وركودها، وتصريف ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي المذلَّل لحمل الأمطار في أماكن المختلفة. وفى كل ذلك دلائل واضحة على وجود الله الصانع للكون ووحدانيته الذي وضع بحكمته نظامه. وبحق قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الآية المماثلة لتلك الآية بسورة آل عمران، كما في الحديث الأول: ويل وعذاب لمن يقرأ تلك الآية، ولم يتفكر في بدائع صنع الله والكون، مما يدفعه إلى الإيمان به إيمانا راسخا عن عقل بصير.

والله- جل شأنه- يذكر في أول آيات سورة يس قسمته اليوم للإنسان بين نهار خلقه مضيئا للناس كي يعملوا فيه لمعاشهم وليل خلقه مظلما ينسلخ وينحسر منه النهار كي يستجموُّا فيه للراحة والنوم. وبذلك أتم الله على الإنسان نعمته بجعله النهار معاشا والليل سكنا. ولو كانت الدنيا نهارا خالصا لكلَّت قوى الإنسان، ولو كانت ليلا صرفا لبطلت حركته، ويقول الله في سورة القصص: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا(١)إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ. وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ليلا ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ نهارًا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. ويقول الله عزَّ ذكره- في آيات سورة يس: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي حتى مكان غروبها اليومي أو زمانه، والله يشير بجري الشمس وسيرها إلى ما يترتب عليه من فصول السنة وأنها تسير بنظام كوني دقيق قدَّره الله ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.والقمر يجرى مثل الشمس وتختلف صوره من ليلة إلى ليلة حتى يصبح كعُرْجون النخل القديم البالي وهو مجتمع شماريخه المشبه للهلال بتقوسه واصفراره. وهى مسيرة للشمس والقمر مقدرة بنظام محكم أحكمه إله قدير يبسط سلطانه على الكون ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فلكل منهما مداره ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فلكل منهما وقته المحدد المعلوم.

---

(١) جُنَّة : وقاية من الشهوات.

وتلك آيتان كونيتان عظيمتان: النهار والليل والشمس والقمر تدلان بوضوح على عظمة مدبرهما وحكته الباهرة. وإن المتأمل في ملكوت الله وما أودع فيه من قدرة عظيمة لا تحدها حدود ليمتلئ قلبه إيمانا به وتمجيدا لصنعته الربانية وتسبيحا له لما كفل للكون من أنظمة وقوانين محكمة. وإن مداومة التفكير في ذلك ليشبه العبادة لخالق الكون. ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني: لا عبادة كالتفكر في الكون وما فيه من عجائب الخلق. وقد تأمل رجل ذات ليلة في السماء والنجوم فعرف أن لها ربا وخالقا فقال اللهم اغفر لي فغفر الله له كما في الحديث الثالث.

ويقول الله- تبارك اسمه- في آيتي سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ وجعلها للناس مهادا لهم وبساطا يتقلَّبون فيه وسوَّاها مبسوطة ليسلكوا منها طرقا مختلفة، وأرسى فيها جبالا شاهقة دالة على عظمته، وشق فيها أنهارا تروى الناس والأنعام، وجعل فيها من كل الثمرات زوجين أي صنفين كالحلو والحامض، والليل بظلمته يغطى النهار لراحة الناس من العمل اليومي. إن في ذلك لآيات بديعة في الخلق لمن يفتحون عيونهم ويتفكرون فيما تحت أبصارهم من صنع الله. ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ وكل قطعة تنبت ما لا تنبته لصيقتها المجاورة لها من الزروع والثمار ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ أي بساتين (مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ) من كل شكل (وَنَخِيلٌ صِنْوَان) تخرج فيه النخلتان والثلاث من أصل واحد (وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ) ومع ذلك تختلف في الطعم وهى نعمة من نعم الله أن ينوع للإنسان فما يطعم حتى في النوع الخاص مثل التمر وإن ألوانه وطعومه لتعد بالعشرات.

وتبدأ آيات سورة الأعلى بتسبيح الله وتنزيهه عما لا يليق وتوحيده وتمجيده وتعظيمه و (الْأَعْلَى) من العلو، وهو ليس علو جهة ولا مكان تعالى عن أن يحيط به مكان أو جهة إنما هو علو ألوهية واستحقاق وكمال. ويقول الله- جل وعز- إنه (خَلَق) أي أبدع (فَسَوَّى) أي جعل صورة المخلوق سويَّة معدة لأداء وظيفتها، فاللسان في الإنسان مثلا للتكلم والبصر للنظر والأذن للسمع واليد للبطش والرجل للمشي، ولا تفاوت بين عضو وعضو في الإنسان كأن تكون إحدى اليدين أقصر من الأخرى. ومن التسوية النظام المطرد في الأشياء كنظام الأفلاك والكواكب ونظام الفصول السنوية، ولا خلل ولا عوج ولا فساد في خلق أي كائن في الكون، مما يدل بوضوح على

كمال الخلق الإلهي. (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى): الذي أعطى كل شيء قدره كما قال تعالى: (قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) في الخلق، وأعطى كل كائن في الكون القدرة على البقاء إلى أجل معلوم، وقدَّر له أحوال وجوده وبقائه، وكل شيء يهتدي إلى ما فيه فائدة له ولغيره إما اختيارا وإما تسخيرا. ويكرر الله أنه سخر كل ما في الكون للإنسان قائلا: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْه) فكل ما فيهما من أفلاك وبحار وأنهار وجبال ووديان ودواب سخره للإنسان كي ينتفع به أكبر نفع من وجهة وليكتشف قوانينه الفلكية والطبيعية والكيميائية والرياضية من جهة ثانية.

ويكرر الله- جَلَّ شأنه، في القرآن أنه خلق الكون وكائناته في صور بديعة من الحسن والبهاء والزينة بدءا بالإنسان إذ يقول في سورة غافر: (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم) وبجانب الجمال الإنساني جمال السماء ونوه بها مرارًا إنها كسقف البيت تضئ بمصابيح الكواكب التي تزدان بها يقول: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا- وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ- وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ). وجعل كل ما على الأرض جميلا: البحار بمشاهدها وما فيها من لؤلؤ ومرجان والحيوانات بمناظرها وألوانها، يقول في الأنعام أي الإبل والبقر والغنم: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ.. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً). وأنزل من السماء المطر وأنبت به كما قال في سورة النمل ﴿حَدَائِقَ ﴾ من مختلف الفواكه والورود ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ تسر كل من يراها. وكلما مدَّ الإنسان بصره إلى جنسه وإلى ما حوله في الكون والسماء والأرض وجد ما يمتع نظره ويغذِّى روحه وعقله من روائع الجمال وبدائع الحسن مما نمَّى حاسة المتاع والبهجة فيه. وكل تلك شواهد ودلائل على خالق أعلى للكون وكائناته التي أوجدها وسَوَّاها في كيفياتها وقدَّر لها قوانين بقائها وتطورها، وهداها اختيارا أو تسخيرا، وأسبغ عليها هيئات بديعة من الحسن والجمال.

١١- عالمية الإسلام

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)

البقرة: ١٠٦

٢- قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا

الأعراف ١٥٨

٣- تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)

الفرقان ١

٤- وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

سبأ ٢٨

الأحاديث

١- عن أبى هريرة قال الرسول صلَّى الله عليه وسلم إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لَبِنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضِعت هذه اللبنة؟! فأنا اللَّبِنة وأنا خاتم النبيين (رواه البخاري في باب خاتم النبيين).

٢- عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بُعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود. (رواه ابن حنبل في مسنده).

٣- عن جابر بن عبد الله قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: كان النبي يبعث إلى قومه خاصّة وبُعثت عامة (رواه البخاري ومسلم).

opelkandi.com

٤- عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني قد أُعطيت خزائن مفاتيح الأرض (رواه البخاري في باب علامات النبوة).

والله في الآية الأولى يقول في أثناء ردوده على أهل الكتاب إننا لا ننسخ آية من آيات الكتب السماوية ﴿أَوْ نُنْسِهَا ﴾ أي نؤخرها، إذ أصل (ننسها) ننسئها، وأبدلت الهمزة ياء تسهيلا وحذفت لأن الفعل معطوف على فعل مجزوم وهو (ننسخ). وأصل المعنى اللغوي للنسخ: الإزالة بشيء آخر، والمراد بالنسخ والتأخير في الآية نسخ الآيات والأحكام في الكتب الإلهية وتأخيرها. والآية ترد على ما كان يقوله بعض اليهود والنصارى من أن محمدا لو كان رسولا حقا ما نسخ القرآن كثيرا من أحكام التوراة والإنجيل. وفاتهم أن رسالة محمد خاتمة الرسالات النبوية وأنها نسخت لمصلحة البشر المكلفين بعض شرائع التوراة والإنجيل لنزولها في عصور وظروف سابقة. يقول الله في سورة الرعد: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ أي عصر وزمن ﴿كِتَابٌ ﴾ أي شريعة، إذ تقتضي الحكمة الإلهية أن تختلف كتب الشرائع باختلاف الأزمنة والعصور المجتمعات، و (يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) أي أن الله جلَّ شأنه- ينسخ ما يشاء نسخه من آيات الشرائع وأحكامها، ويثبت ما يشاء إثباته بدلا منها مما فيه مصلحة الجماعة البشرية (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) أي أن عنده علمه الأزلي بما يصلح للناس في كل عصر وزمن.

ويشهد لنسخ الله آيات وأحكاما في التوراة والإنجيل قوله تعالى في سورة الأعراف عن اليهود والنصارى الداخلين في الإسلام بأنهم (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ) أي المأكولات الطيبة (وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) أي ما تستقذره النفوس من المطعومات وكل شيء (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ(١)الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) أي التكاليف الشاقة التي كلفوا بها في التوراة والإنجيل. والآية الكريمة تذكر بوضوح أن القرآن الكريم ينسخ بشريعته آيات وأحكاما متعددة في التوراة والإنجيل. والآية الكريمة تذكر بوضوح أن القرآن الكريم ينسخ بشريعته آيات وأحكاما متعددة في التوراة والإنجيل كانت ترهق اليهود والنصارى. ويشير الرسول صلَّى الله

(١) جُنَّة : وقاية من الشهوات.

عليه وسلم إلى ذلك بلطفه الرائع في الحديث الأول قائلا إن مثله ومثل الأنبياء قبله فيما نسخَ من شرائعهم وبدَّل وغير من أحكامها مثل رجل يبنى بيتا جميلا وترك موضع لبنة منه، فأخذ الناس يطوفون بالبيت ويتعجبون لم تُرك مكان هذه اللبنة خاليا يقول الرسول: أنا اللبنة وأنا خاتم النبيين. فأي لطف هذا التصوير لأحبار اليهود والنصارى الذي صوَّر فيه شريعته كلَبِنة بجانب شريعتيهما، وهو إنما أقام بشريعته صَرْحًا أروع وأبهر. ويصرِّح القرآن مرارا بأنه يصحِّح ويصلح ما أدخله أحبار اليهود وعلماء الديانات السابقة على الكتب الإلهية من تحريفات، يقول في سورة البقرة:(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ). ويضيف القرآن أنه ينقذ أصحاب الكتب الإلهية السابقة من اختلافاتهم المريرة التي ولدت بينهم العداوة والبغضاء كما نرى في قوله تعالى مخاطبا نبيه في سور النَّحْل (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ) والقرآن بذلك يصلح نفوس أهل الكتاب بما يرفع من الخلافات بينهم في حقائقهم الدينية، كما يصلح ما حرَّفوه من نصوص كتبهم الرَّبَّانية. وقد أُنزل القرآن وأُنزلت شريعته رحمة بالناس لإنقاذهم من ضلالاتهم ومن خلافاتهم وافتراءاتهم على الرسل، ورحمة بما دعا إليه الله من الخير والبر والعدل ومن رعاية الفقراء والأيتام والأرامل ومن اجتناب الآثام والظلم والبغي والعدوان، إنه أعظم شريعة أنزلت إلى البشر لسعادتهم، وبذلك نفهم بوضوح قوله تعالى مخاطبا رسوله في سورة المائدة (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ) أي القرآن الكريم) بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ(فهو مصدق للديانات الإلهية السابقة، أي أنه يؤيد بعض ما جاء في الشرائع السالفة ويهيمن عليها أي يسيطر. ويؤكد الله هيمنة القرآن على الديانات السابقة بقوله في سورة التوراة: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) أي لتكون له هيمنة على الديانات كلها وسلطان، فيصلح ما دخلها من تحريف وزيف وإضافة، وينسخ ما جاء فيها من أحكام مؤقتة روعي فيها مصلحة أقوام في بعض العصور والأزمنة الماضية.

ويخاطب الله- عزَّ اسمه- في الآية الثانية رسوله آمرا له بأن يقول للناس جميعا عربا وغير عرب بأنه رسول الله إليهم كافة لا إلى العرب وحدهم بل إلى جميع البشر. وأكد ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم مرارا بمثل قوله في الحديث الثاني: بُعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، والمراد

بالأحمر الأبيض إذ العرب تسمى الأبيض أحمر أي أنه بُعث إلى البشر جميعا. وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث: كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناس عامة. ويتردد في القرآن الكريم أن الله- تقدس اسمه- أرسل كل رسول على قومه، فنوح أرسل إلى قومه وهود أرسل إلى عاد، وصالح أرسل إلى ثمود، ولوط أرسل إلى قومه، وشعيب أرسل إلى أهل مدين، وعيسى أرسل إلى بنى إسرائيل. ويقول الله في سورة الروم (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِم) فكل الرسل أرسلوا إلى أقوامهم ما عدا محمدا فإنه أرسل إلى جميع البشر عربا وغير عرب.

ويقول الله جَلَّ شأنه في الآية الثالثة إنه أرسل محمد ليكون نذيرا للعالمين كما يقول في سورة الأنبياء لنبيه صلى الله عليه وسلم: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِين). وكلمة العالمين تتردد في القرآن كثيرا ومعناها العالم فهو رحمة ونذير وبشير للعالم جميعه. ويكرر الله في سورة يوسف وص والقلم والتكوير أن القرآن- بما يحمل من شريعته- ذكر للعالمين أي للعالم جميعه. فهو ليس- كما يقول أعداء الرسول ودينه الحنيف- سحرا ولا كهانة ولا أساطير الأولين، إنما هو ذكر ومواعظ تهدى البشر جميعا إلى الدين القويم الذي يسعدهم في الدنيا والآخرة.

والله- تبارك اسمه- في الآية الرابعة يقول لرسوله صلَّى الله عليه وسلم: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) أي إنا لم نرسلك لقريش والعرب فقط، بل أرسلناك للناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها لتبلغهم رسالتك (بَشِيرًا وَنَذِيرًا) لهم تبشِّر من آمن بك، فوحِّد الله واعتنق شريعتك وما فيها من أوامر ونواه ربانية، بأن الله سيدخله جنته وينعم فيها نعيما أبديا، وتنذر من أشرك بالله وعبد آلهة متعددة ورفض رسالتك وشريعتك بأن مصيره إلى عذاب النار الأليم. وإيمانا من الرسول بعالمية دينه وإنه سينتشر في العالم كان يبشر أصحابه بذلك مرارا بمثل قوله في الحديث الرابع إني قد أعطيت خزائن مفاتيح الأرض. ونراه بعد اعتناق أهل الجزيرة العربية للإسلام في السنة الثامنة للهجرة يرسل جيشا لغزو الروم، وبلغ مؤتة في جنوبي الشام ولم يكتب له النصر وعاد. وفى السنة التاسعة للهجرة يُرسل كتابا إلى كسرى الوثني ملك إيران وآخر إلى قيصر المسيحي إمبراطور بيزنطة والروم يدعوهما إلى اعتناق الإسلام، وفى نفس السنة خرج بنفسه على رأس جيش لإعلام الروم برسالته وبلغ تبوك، ورأى أن يعود. وقبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أعدَّ

جيشا ثالثا لغزو الروم، وأنفذ الخليفتان أبو بكر وعمر فكرته ففُتحت إيران واستولى المسلمون على مصر والشام أهم ولايتين لبيزنطة، كما استولوا فيما بعد على البلاد المغربية من بيزنطة وروما، ولم يكونوا غزاة فاتحين، بل كانوا ناشرين للدين الحنيف وانتشر شرقا وغربا.

وهذه العالمية للإسلام فرض الله معها على الرسول والمسلمين أن يتعايشوا في ديارهم مع جميع مَن بها من أصحاب الديانات والملل إلهية وغير إلهية تعايشا سديدا على نحو ما سنبسط ذلك في حديثنا عن الحرية الدينية والتسامح الإسلامي اللذين كُفلا لجميع أصحاب الملل دون أي استثناء مع المحافظة لأصحاب كل ملة ودين على معابدهم وأموالهم وحقوقهم وأداء شعائرهم بحرية تامة. وكان المسلمون منذ جيلهم الأول في عصر الخلفاء الراشدين يتعايشون هذا التعيش الجماعي مع أصحاب الكتب السماوية ومع الصابئة عبدة الكوكب في شمال العراق، ومع المجوس عبدة النار في إيران.

ومضى المجتمع الإسلامي بهذا التعايش الجماعي بين كل الأجناس والعناصر المكونة له حتى إذا شُغف العرب بالاطلاع على ما لدى الأمم الأجنبية من معارف وثقافات تجرَّد لهم عشرات إن لم يكن مئات ينقلونها ويترجمونها لهم إلى العربية، وتموج بهم صفحات كتاب الفهرست لابن النديم، وقد بدأوا ذلك منذ أواسط القرن الأول الهجري. وتكاثرت للمسلمين جموع النقلة والمترجمين في القرنين التاليين من فرس وهنود وسريان حتى لم يبق كتاب مهم لدى الهنود والفرس إلا نقل إلى العربية ونقلت الفلسفة اليونانية وما كان لدى اليونان وغيرهم من العلوم. وانصهرت كل هذه الثقافات في الفكر العربي وانطبعت بعالمية الإسلام وروحانيته على نحو ما يتضح في الفلسفة الإسلامية عند الكندي معاصر المأمون الذي يفتتح سلسلة الفلاسفة الإسلامية العالميين، وقد ساند المنطق منذ القرن الثاني العلوم اللغوية والشرعية. وأخذت تزدهر من حينئذ عالمية الإسلام في العلوم وفى الآداب وفى الفكر العربي الإسلامي وفلاسفته: الرازي والفارابي في القرن الرابع الهجري وابن سينا والبيروني في القرن الخامس. ويُشْغَلُ المشرق بالصليبيين في القرن السادس ثم بالتتار. وتظل للإسلام عالميته الضخمة في الأندلس وبخاصة في عصر فيلسوفها ابن رشد. وتنبهت أوربا لأعماله ولما في الأندلس من كنوز فلسفية وعلمية عربية، فوفد كثيرون منهم على قرطبة وطليطلة وتعلموا العربية ونقلوا هذه الكنوز إلى اللاتينية، ويقول ألدوميلى الإيطالي في

كتابه "العلم عند العرب": "ترجمت كل كتب العلماء العرب العظام إلى اللاتينية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد» وهو فضل عظيم لعالمية للإسلام على الغرب إذ كان منارة له في مسالكه إلى حضارته الحديثة.

ويدل بوضوح على ما في عالمية الإسلام من طاقات مدخرة عظيمة كانت تحميه دائما من الانهيار أنه بعد اكتساح التتار للإسلام في بغداد اكتسحتهم عالمية الإسلام دينيا فاعتنقوه جميعا، وتكونت منهم دولة إسلامية كبرى، وبالمثل في أثناء منازلة إسبانيا والغرب للإسلام في الأندلس واكتساحها له حربيا اكتسحهم علميا وحضاريا وتكوَّنت في شرقي أوربا دولة العثمانيين الأتراك الإسلامية العظمى. ولذلك نظن رغم ما حدث لعالمية الإسلام من ضعف سياسي لدولها واستعمار الغرب لها زمنًا أنها- بإذن الله- ستسترد قواها كاملة وتزدهر من جديد.

obeikandl.com

١٢- الشورى- الإجماع

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

آل عمران ١٥٩

٢- وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ

الشورى ٣٨

٣-وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)

آل عمران ١٠٥

٤- وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)

النساء ١١٥

الأحاديث

١- عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قلت: يا رسول الله! الأمر يحدث بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يُسمَع منك فيه شيء قال: اجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد (روته كتب التفسير).

٢- عن أنس بن مالك قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: إنَّ أمتي لا تجتمع ضلالة (رواه ابن ماجه في سنُنه والترمذي).

obeikandl.com

٣- عن عمر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أراد أن يسكن بُحْبوحة[١] الجنة فليلزم الجماعة (رواه الشافعي في الرسالة وابن منظور في اللسان).

٤- عن أبى ذِّر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن فارق الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع رِبْقَةَ[٢] الإسلام (رواه أبو داود في سننه).

والآية الأولى تأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه في الأمر أي في كل ما يهم مصالح الأمة من شئونها في الحرب والسلم، واختلف الفقهاء في قوله تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) هل هو أمر للرسول وحده أو هو أمر له وللأمة والصحيح أنه أمر عام له وللأمة الإسلامية. واختلفوا أيضا هل المشاورة واجبة على أولى الأمر أو مستحبة فقط، والصحيح أنها واجبة. وكان الرسول- صلى الله عليه وسلم- يلتزمها مع صحابته في الأمور المهمة المتصلة بمصلحة الأمة،من ذلك أنه لما أتاه الخبر بخروج جيش لقريش لحماية قافلة أبى سفيان الواردة من الشام بعروض التجارة استشار أصحابه فيما يصنعون هل يتجهون للقاء القافلة أو للقاء جيش قريش. وتكلم بعض المهاجرين مؤثرا لقاء الجيش، واستمرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشورته يريد أن يسمع رأى الأنصار. وبادر سعد بن معاذ الأنصاري رضى الله عنه قائلا: يا رسول الله والله لو استعرضت(٣) بنا هذا البحر (يريد البحر الأحمر) لخضناه معك، فسِرْ بنا يا رسول الله حيث شئت على بركة الله. فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم للقاء الجيش القرشي حتى نزل على أقرب ماء من مياه بدر، واستشار أصحابه أين يكون المنزل؟ وأشار الحباب بن المنذر بالتقدم حتى تحجز قريش عن ماء بئر بدر، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأيه، ودارت الدوائر على الجيش القرشي. وشاور الرسول الصحابة في غزوة أحد هل يلقون الجيش القرشي داخل المدينة أو خارجها، وأشاروا بالخروج ونازلوه معه خارج المدينة. وشاورهم في غزوة الأحزاب هل يصالح قائدي غطفان بثلث ثمار المدينة لينصرفا عن الغزوة بمن معهم من الأعراب، وأبى ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة زعيمي الأنصاري وأخذ بمشورتهما. وعلى هذا النحو كان يكثر من مشاورة

---

(١) بحبوحة : وسط.

(٢) قِيد : قدر. ربقة الإسلام : عقده وعهده.

(٣) استعرض بهم البحر: عرضهم عليه.

obeikandi.com

أصحابه في الحرب والسلم وخاصة مشاورة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. وبذلك كان يجعل الأمر من شئون الأمة ومصالحها شورى، وأوصى بها الصحابة بعده كما في الحديث الأول. وطبعا الشورى لعهد الرسول صلى الله عليه وسلم. إنما كانت فيما لم ينزل فيه قرآن ووحي من أمور التشريع الإلهي، مما يتصل بمصالح الأمة حربا وسلما.

وكما تذكر الآية الأولى وجوب المشاورة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه تنوِّه الآية الثانية بالشورى الدائمة بينه وبينهم في كل ما يهم من الأمور حتى يتبين الرأي الصائب. ومعروف أن المهاجرين والأنصار تشاوروا بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى فيمن يخلفه، ولم يلبثوا أن أجمعوا على أبى بكر الصديق رضى الله عنه. وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم الشورى أصلا من أصول الحكم في الشريعة الإسلامية، وكان ينبغي أن يأتسي به حكام الأمة وينمُّوها على مر العصور، إذن ما احتجنا إلى أن نأخذها عن الغرب في عصرنا الحديث وما وضع لها من أنظمة.

وكما حثَّ القرآن الكريم والحديث النبوي على الأخذ بالشورى في مصالح الأمة حثَّا أيضا على الإجماع بحيث إذا أجمعت الأمة على رأى وجب الأخذ به. وهو بذلك يعد المصدر الثالث في التشريع الإسلامي بعد كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذهب الفخر الرازي إلى أن الآية الثالثة نَصٌّ فيه، وأن الله يقول فيها: لا تكونوا مثل اليهود والنصارى الذين تفرقوا في أصول دينهم شيعا وكفَّر بعضهم بعضا (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) والدلائل التي كان من شأنها أن تحول بينهم وبين التفرق والاختلاف والتناحر الشديد. والله- جَلَّ شأنه- يدعو الأمة الإسلامية إلى العمل بالإجماع حتى لا يتفرقوا نِحَلاً كما تفرق اليهود والنصارى. واتفق أكثر علماء الأمة على أنه حجة شرعية يجب العمل به على كل مسلم إلا ما كان من مخالفة بعض الخوارج والشيعة في ذلك. والأحاديث التي تؤيد عصمة الأمة الإسلامية من الخطأ في رأيها كثيرة، من ذلك الحديث الثاني: لا تجتمع أمتي على ضلالة، وقوله- صلى الله عليه وسلم- يد الله مع الجماعة، وقوله: يد الله على الجماعة أي أنهم في حمايته وتعمُّهم وقايته، ومثل ذلك قوله: عليكم بالجماعة، وقوله: سألت ربى أن لا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيه، وقوله: ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن. ومن ذلك الحديث الثالث الذي يجعل فيه سُكنى وسط الجنة لمن لزم الجماعة ولم يشذ عليها. وذهب كثير من الفقهاء إلى أن الإجماع الذي يعتد به إنما هو إجماع المجتهدين من الفقهاء

فهم الذين ينعقد بهم الإجماع دون العامة، فموافقتها- مثل مخالفتها- لا يعتد بها في الإجماع. غير أن الأحاديث النبوية السالفة تثبت العصمة للأمة جميعا خاصة وعامة، فلا يلزم أن تكون ثابتة للمجتهدين من الفقهاء وحدهم، بل هي ثابتة لجميع الأمة مما يترتب عليه أن يكون الاحتجاج بالإجماع قطعيا عند دخول العوام فيه وظنيا بدونهم كما ذهب إلى ذلك الآمدي في كتابه الإحكام وهو الصواب.

ولكن ما الأمور التي يدور فيها إجماع المسلمين؟ هي أمور كثيرة تتصل بحفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. وحفظ الدين إنما هو المحافظة على الشريعة وفروضها، وحفظ النفس هو المحافظة على الكرامة وحقوق الحرية في لعمل والفكر والقول، وحفظ العقل هو المحافظة عليه من كل ما يضره من مثل الخمر والمخدرات والقمار، وحفظ النسل هو المحافظة على إطعامه وتربيته تربية سليمة وتعليمه تعليما سديدا. وحفظ المال. وكل ذلك من حق الأمة أن تبدى الرأي فيه إذا كانت تدفع إلى ذلك مصلحتها، وطبيعي أن ما يرجع إلى حفظ الدين ثابت وأنه لا مدخل للإجماع فيما نص عليه الكتاب والسنة «نصا قاطعا» لا يحتمل التأويل.

وتشدِّد الآية الرابعة في الأخذ بما اتفقت عليه الأمة وانعقد إجماعها عليه، إذ تذكر أن من يشاقق الرسول ويخالفه من بعد ما اتضح له هدى الدين الحنيف (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى) أي نتركه وشأنه (وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا). وإذا كان من لا يتبع سبيل المؤمنين وإجماعهم جزاؤه جهنم فإن اتباعهم واجب وبعبارة أخرى يلزمه هذا الاتباع فيما أجمعوا عليه. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع: إن من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع عقد الإسلام وعهده، وهو تشريف للأمة الإسلامية لا يمثله تشريف، إذ ضمن لها الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الكثيرة العصمة من الخطأ.

١٣- الاجتهـاد

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ

النساء ١٠٥

لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا

المائدة ٤٨

وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ

الأنعام ١١٩

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ

الحج ٧٨

الأحاديث

١- عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت لبه من حقِّ أخيه شيئا فإنما أقطع له قطعة من النار (رواه مالك وابن حنبل والبخاري ومسلم في كتاب الأقضية).

٢- عن معاذ بن جبل رضى الله عنه حين بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن أنه قال له بم تقضى؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أقضي بما قضى به رسول الله، قال: فإن لم تجد ؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو[1]، قال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسوله. (رواه الآمدي في كتابه الإحكام في أصول الأحكام ٤/ ٤٢).

(١) قِيد : قدر. ربقة الإسلام : عقده وعهده.

obeikandi.com

٣- عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر (رواه البخاري في كتاب الاعتصام).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها (رواه أبو داود في كتاب الملاحم).

والآية الأولى تذكر أن الله- جَلَّ شأنه- أنزل القرآن على رسوله بالحق الواضح الذي يحكم به بين الناس أي أنزله عليه بالأحكام الكلية التي تندرج فيها الأحكام الفرعية في قضايا الناس، ويؤكد الله ذلك بقوله: (لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ).واستدل الإمام الشافعي وفقهاء الأمة بهذه الآية على وجوب الاجتهاد في فهم الشريعة. وجعله الشافعي رابع الأصول التي يرجع إليها في الشريعة. والثلاثة قبله: الكتاب/ والسنة/ والإجماع.

والله في الآية- قد وجَّه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو موجه إليه وإلى أمته كما في كثير من آيات التنزيل، وبذلك الاجتهادُ فريضة شرعية عامة، وعرَّفه الغزالي في كتابه المصطفى بأنه بذل المجتهد وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة فيما لم يأت فيه نصٌّ أو دليل قطعي كالصلوات الخمس فلا اجتهاد فيها. والاجتهاد دائما ليس في الأصول إنما هو في الفروع، كما نعرف عند أئمة المذاهب الفقهية الأربعة. ومجتهد الأمة الأول الرسول صلى الله عليه وسلم، وكما يحدث أحيانا للمجتهد من الخطأ حدث الخطأ لرسول اله صلى الله عليه وسلم في اجتهاده إزاء أسرى غزوة بدر من قريش فقد طلبوا منه أن يفاديهم بالمال ولا يعودوا إلى حربه، فاستشار أصحابه- عملا بقوله تعالى (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) - فأشارت عليه جماعة بالفداء في مقدمتهم أبو بكر الصديق، قال: يا نبي الله هم بنو العَمِّ والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، وخالفه عمر قائلا: يا رسول الله أرى أن تمكِّننا منهم فنضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده. واختار الرسول صلى الله عليه وسلم رأى أبى بكر، فأخذ منهم الفداء، فأنزل الله عليه معاتبا له ولمن ارتضى الفداء قوله تعالى في سورة الأنفال: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) أي حتى يغلظ في الأذى وشدة الجراحة والقتل. ويقول الله عقب الآية: (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُم) من أموال الفداء (عَذَابٌ عَظِيم) ولذلك قال

الرسول: لو نزل علينا عذاب من السماء ما نجا منه إلا عمر. ويدل بوضوح على اجتهاد الرسول وأنه قد يخطئ فيه الحديث الأول الدال على أنه قد يسمع من الخصم لحنًا من القول أفسح وأبين في الحجة من صاحبه فيحكم حكما مخطئا وهو ما لم يحدث لأنه كان يلهم الحكم الصائب.

وفيما قدمت ما يدل على مشروعية الاجتهاد لجميع المسلمين ويؤكد ذلك حديث معاذ الثاني الذي سأله الرسول بم يقضى بين أهل اليمن؟ فأجابه بكتاب الله ثم بسنة رسوله فإن لم أجد فيهما مستندا اجتهدت برأيي غير مقصر، واستحسن الرسول منه هذه الإجابة. ومضى الصحابة يجتهدون بعد انتقاله- صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى، ومن أكثرهم اجتهادا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد منع الزكاة عن المؤلفة قلوبهم من أشراف العرب إذ أعز الله الإسلام وأغنى عنهم، ومنع زواج المتعة، وأحدث صلاة التراويح، وأبطل قطع يد السارق عام المجاعة إلى غير ذلك من اجتهاداته. وتوزَّع الصحابة في الفتوح الإسلامية وكان منهم مجتهدون كثيرون، وبالمثل في التابعين، حتى لم يكد يخلو قطر من مجتهدين، وإذا تعددت المجتهدون في قطر لم يكن أحد منهم يتعصب لرأى له ضد زميل عملا بقوله صلى الله عليه وسلم. اختلاف أمتي رحمة، وكأنه لم يَدْعُ للاجتهاد فحسب، بل دعا أيضا لقبول اختلاف الرأي في الاجتهاد.

والآية الثانية في اختلاف أصحاب الديانات السماوية، والله جل وعز يقول لكل منهم جعلنا شرعة ومنهاجا، وكأنه بذلك يجعل لكل مجتهد شرعة ومنهاجا يلتزمه، وقد عمَّ التسامح إزاء الرأي الآخر لبعض الفقهاء، مما فسح للاجتهاد واختلافاته إذ جميعها اختلافات فرعية لا تمس أصول الإسلام على نحو ما هو معروف في المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة التي نشأة في القرنين الثاني والثالث للهجرة. والاختلافات الكثيرة كلها لا تخرج عن شرع الإسلام وأصوله، وبذلك حفظ الاجتهاد الشريعة بالفتاوى الكثيرة التي أبداها فقهاء الشريعة في النوازل والأحداث المستجدة، وفى ذلك يقول الشهرستانى في كتاب الملل والنحل: «نعلم قطعا ويقينا أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعدَّ، ونعلم قطعا أيضا أنه لم يرد في كل حادثة نص، ولا يُتَصَوَّر ذلك أيضا. والنصوص (أي القرآن والحديث) إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية وكان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى عُلم قطعا أن الاجتهاد والقياس واجبُ الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد».

وما زال الاجتهاد شائعا ومعمولا به بين فقهاء الأمة حتى عصر السيوطي في القرن التاسع الهجرة/ الخامس عشر الميلادي، وله كتاب في الدفاع عن الاجتهاد سماه: «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض». واتسع التقليد في العصر العثماني وبعده. وعاد الاجتهاد حرا منذ الشيخ محمد عبده، وهو بلا ريب فرض كما يقول السيوطي وأصل من أصول الشريعة الأربعة، إذ هو الرابع للكتاب والسنة والإجماع. وقد شاع الحديث الثالث بين المسلمين في الحقب الماضية وجعلوه عاما بمعنى أن كل مجتهد- حاكما أو غير حاكم- إن اجتهد وأصاب فله أجران، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد. وواضح أنه يحث بقوة على الاجتهاد.

والآية الثالثة تنصُّ- بوضوح- على قاعدة الضرورة في الشريعة،وهى في الذبائح المحرمة، غير أنه ينبغي تعميمها لتفصل في كثير من المسائل التي تحدث للمسلمين في عصرنا بعد أن تعقدت معيشتنا، وتعقد اقتصادنا، وتعقدت وسائل الإنتاج، فما يراه فقهاؤنا من علماء الاقتصاد مما يعد ضرورة ينبغي أن نقبله- بناء على اجتهادهم- لأنه لا مناص منه ولا مفر.

والآية الرابعة يقول الله- تبارك اسمه- فيها ما كلفكم الله من حرج أو ضيق لا تطيقونه وما ألزمكم بشيء يصعب عليكم إلا أوجد لكم منه- باجتهادكم- فرجا. وهي وما يماثلها في القرآن من مثل قوله تعالى في سورة البقرة: (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْر) تفتح للمسلمين أبواب الاجتهاد في الشريعة الإسلامية على مصاريعها، كما يفتح الحديث الرابع القائل إن الله يبعث للأمة كل مائة سنة من يجدد لها دينها، والتجديد أعم من الاجتهاد إذ يشمله ويشمل تجديد شخصيتها وما يتصل بها من الفضائل.

وواضح أن الإسلام يجعل الاجتهاد واجبا من واجبات المسلم، وقد جعله الشافعي- ووافقه فقهاء الأمة- أصلا ثابتا من أصول الشريعة فيما لم يرد فيه نص من القرآن والحديث والإجماع. واتفق الفقهاء على شروط في المجتهد أهمها أن يكون عدلا محيطا بمدارك الشريعة في القرآن الكريم والحديث النبوي مع معرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن ومعرفة الصحيح من الزائف في السنة ومعرفة اللغو والنحو والبلاغة. واتفقوا على أن ما يجوز فيه الاجتهاد من الشريعة هو كل حكم شرعي ليس فيه دليل قطعي من الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

١٤- اليُسر

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ

البقرة ١٨٥

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفًا (٢٨)

النساء ٢٨

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ

الحج ٧٨

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)

الشرح ٥ و ٦

الأحاديث

١- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الدين يُسْرٌ ولن يُشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا (رواه البخاري في كتاب الإيمان).

٢- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ الدين إلى الله الحنيفية السَّمحة (رواه البخاري أيضا في كتاب الإيمان).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا صلَّى أحدكم بالناس فَلْيخفِّفْ، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطوِّل ما شاء (رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي).

obeikandl.com

٤- عن السيدة عائشة قالت: صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخَّص فيه، فتنزَّه عنه قوم. فبلغ ذلك الرسول فخطب، فحمد الله ثم قال: ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية (رواه البخاري في كتاب الأدب).

أنزل الله- تبارك اسمه- في الآية الأولى بشراه للمؤمنين بأنه يريد بتشريعاته لهم اليسر، ولا يريد لهم العسر عقب رخصته لهم بالإفطار في رمضان للمرض والسفر وما يمثلهما من الأعذار، لأنه يريد بالمسلمين اليسر. واليسر معناه السهولة، وكأن الله قد ذكر الرخصة المذكورة في الآية، وأعقبها بهذا البيان العام في الشريعة الإسلامية، وأن أيام الصيام تُقْضَى حين يعود المؤمن لحياته الطبيعية فيقضيها متتابعة أو متفرقة. ومما يسره له في السفر القصر في الصلاة بحيث يصبح كل من الظهر والعصر والعشاء ركعتين، ويصلى العصر معا لظهر والعشاء مع المغرب، كل ذلك تيسيرا على المسافر. وإذا وجد المصلى الماء توضأ، وإن لم يجده بأن كان مسافرا في الصحراء أو على متن طائرة تيمم بضرب يديه على تراب أو على خشب أو على شئ، مما يخرج من الأرض. ووراء هذه التيسيرات تيسيرات لا تكاد تحصى في التشريع جدية بأن يكتب عنها كتاب مستقل. وبحق يقول الرسول لأصحابه: يَسِّروا ولا تعسِّروا، فإن الدين- كما يقول في الحديث الأول- بُنى على اليسر، وفى وصيته لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعري حين أرسلهما أميرين إلى اليمن: بَشِّرا ولا تنفِّرا ويَسِّرا ولا تعسِّرا حتى يجتمع الناس إليهما ويستمعوا إلى القرآن: هدى الله، فيهتدوا. وينصح الرسول في الحديث الأول أن لا يتشدد أحد في الدين ويحاول التعمق فيه حتى لا يغلبه الدين ويعجز عن مشادَّته ومقاومته لكثرة وجوه العبادة فيه، والرسول لذلك يدعو المؤمن أن يترفق بنفسه، وله في ذلك مواقف مشهودة من بعض الصحابة، منها أن ثلاثة منهم تعاهد أولهم أن يظل يصلى لربه ليلا ونهارا، وتعاهد الثاني أن يظل صائما الدهر فلا يفطر، وتعاهد الثالث أن لا يتزوج أبدا حتى يخلص لعبادة ربه. فذهب الرسول إليهم، وسألهم عما تعاهدوا عليه فشهدوا بذلك على أنفسهم، فقال لهم: أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصلِّى وأنام وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء. وهذه شريعتي وسنتي فمن رغب عنها فليس منى. فانتهوا عما كانوا قد عزموا- وأصروا- عليه. وقصته مع عبد الله بن عمرو بن العاص مشهورة، فقد أُخْبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يقول: والله لأصومنَّ النهار وأقومنَّ الليل مصليا ما عشت، فاستدعاه الرسول صلى الله عليه

وسلم وقال له هل قلت ذلك؟ قال عبد الله نعم قد قلته يا رسول الله قال: فإنك لا تستطيع أداء ذلك فَصُم وأفطر ونَم وقم أي صَلّ، وصُم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر. قال عبد الله: فإني أطيق أفضل من ذلك قال الرسول: فَصُم يوما وأفطر يومين، فقال عبد الله: إني أطيق أفضل من ذلك قال الرسول: فصم يوما وأفطر يوما، فقال عبد الله: إني أطيق أفضل من ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أفضل من ذلك.

والآية الثانية كالآية الأولى تجعل التخفيف في أمور الشريعة مُراعى، يراعيه الله كما يراعى التيسير، رفقا بالأمة الإسلامية ورفقا بأفرادها، إذ الإنسان خلق- كما تقول الآية- ضعيفا، والله لذلك يخفف عن المسلمين ويرفق بهم وبالمثل رسوله. فمن ذلك أن بعض المصلين خلف معاذ بن جبل شكوا إلى الرسول من تطويله في صلاته بهم، فقال له أفتّان أنت؟. والشريعة الإسلامية- بذلك- تُعَد أفضل الشرائع السماوية لقيامها على اليسر والتخفيف. وشهد الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني قائلا: إن أحبَّ الدين إلى الله الحنيفية السمحة، والحنيفية: الشريعة الإسلامية القائمة على ركنين عظيمين من التخفيف والتيسير على المؤمنين. ومما يصور ذلك الحديث النبوي الثالث الذي يدعو فيه الرسول من يؤمّون الناس في الصلاة إلى أن يأخذوا أنفسهم فيها بالتخفف إشفاقا على من وراءهم فإن بينهم الضعيف والسقيم والكبير المسن.

والآية الثالثة تبين بدورها فضل الشريعة الإسلامية وأن الله لم يجعل فيها من حرج أو ضيق بل جعلها قائمة على السهولة والتيسير والتخفيف، وبذلك كانت شريعة عالمية بحق، فهي سهلة ميسورة بكل فروضها ومقاصدها على أهلها وعلى من يعتنقها من الأمم وأصحاب الملل الأخرى. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض رخصا في الشريعة، وكان بعض الصحابة يرى أن لا يأتيها طلبا للمشقة على نفسه إرضاء- فيما يظن- لربه، فكان الرسول يضيق بتصرفهم، ويبلغ به الضيق أن يخطب فيهم ناهيا من يمتنعون عن بعض رخصه، ويصور ذلك الحديث الرابع إذ بلغه أن قوما يتنزهون عن إحدى رخصه، فلامهم لوما شديدا قائلا إنه يأتي هذه الرخصة وهو أعلمهم بربهم وأشدهم له خشية. وكان ما يزال يحبِّب الصحابة في إتيان الرخص التي منحها الله لهم تيسيرا عليهم ورفقا لهم ومحبة، وكان ما ني يقول إن الله يحب من عَبْده أن يأتي رُخَصه.

ولعل في ذلك كله ما يشهد- بصورة واضحة- أن الشريعة الإسلامية تقوم على اليسر وأنه يعد أصلا أصيلا فيها كما شهدت بذلك الآيات والأحاديث السابقة وآيتا سورة الشَّرح: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) والسورة في خطاب الرسول، وقد يكون العسر في الآيتين خاصا به وأنه لابد أن يعقبه يسر، والأولى أن يكون عاما له ولأمته، ويرجح ذلك أنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشروا أتاكم اليسر، لن يغلب عسر يسرين. وكأن تعريف العسر في الآيتين جعله عسرا واحدا، بينما بتنكير اليسر تعدد، فأصبح يسرين. وكأن كل عسر في الشريعة الإسلامية يقابله يسران، فما أيسرها وأجلها من شريعة.

obeikandl.com

١٥- التوسط

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

البقرة ١٤٣

٢- حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)

البقرة ٢٣٨

٣- قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)

القلـــم ٢٨

الأحاديث

١- قال صلى الله عليه وسلم: خيار الأمور أوساطها (رواه المفسرون واللغويون).

٢- عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة قال من هذه ؟ قالت هذه فلانة تذكر من صلاتها (كثرة) قال: مَهْ (أي اكْفُفْنَ) عليكن (من العمل) بما تُطقن فوالله لا يملُّ الله (من الثواب) حتى تَمَللن (من العمل) وأحبُّ الدين إلى الله ما داوم صاحبه عليه (رواه البخاري في كتاب الإيمان).

٣- عن ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هَلَك المتنطِّعون. قالها ثلاثا. والمتنطعون: المتعمقون في الدين المتشدِّدون في غير موضع التشدُّد (رواه مسلم في كتاب العلم وابن حنبل في مسنده).

٤- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا الدين متينٌ فأوْغلوا فيه برِفقٍ فإن المنبتَّ لا أرضا قَطَع ولا ظَهْرًا أبْقى (رواه البخاري في كتاب الإيمان).

obeikandi.com

ويقول الله- تقدس اسمه- في الآية: الأولى: (وكذلك) مشيرا إلى تعظيم ما سيذكر بعد اسم الإشارة وهو أنه جعل المسلمين (أُمَّةً وَسَطًا) والوسط اسم للموقع بين طرفي مواقع مختلفة كقولنا وسط الجزيرة ووسط الوادي ووسط الحقل، وهو أيضا اسم لما بين طرفي شيء مثل وسط الحبل ووسط الغرفة ووسط الدار، ومن ذلك واسطة العقد، وهى الجوهرة النفيسة التي تتوسط درر العقد. وفُسِّرْت الكلمة في الآية بأنها تعنى خيارا من الخير لقول الله تعالى في سورة آل عمران: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وأريد بالخير ما يشمل جميع الخيرات وأداءها أحسن أداء. وقيل بل المراد بكلمة (أُمَّةً وَسَطًا) أنها أمة عادلة تلتزم التوسط في كل شئونها على نحو التزامها للعدل المتوسط بين الشفقة والقسوة فهي تتمسك دائما في الأخلاق بالتوسط والعدل. فتتمسك مثلا بالكرم المتوسط بين الإسراف والشح، وبالشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن، وبحق يقول الرسول في الحديث الأول: خيار الأمور أوساطها ويقول فخر الدين الرازي في تفسير الآية: يجوز أن يكون وسطا بمعنى أنهم متوسطون في الدين بين الإفراط والتفريط، لأنهم لم يغلوا كما غلا النصارى فجعلوا المسيح ابن الله ولا فَرَّطوا كما فرَّط اليهود، فبدَّلوا وحرَّفوا التوراة وقتلوا أنبياءهم واستخفوا برسلهم.

وقد كرَّر الرسول صلى الله عليه وسلم طلب هذا التوسط من أمته الإسلامية في دعوته المستمرة إلى صحابته من الرجال والنساء أنْ لا يسرفوا ويشتطوا في عبادتهم لربهم على نحو ما نجد في الحديث الثاني، فقد دخل على زوجته السيدة عائشة، فوجد عندها امرأة، فسألها عنها، وأجابته قائلة إنها تذكر إكثارها من الصلاة، فقال: مَهْ زجرا عن هذا الإكثار،وربما كان يزجر السيدة عائشة لمدحها المرأة بكثرة صلاتها وقال عليكن من العمل والصلاة بما تستطعن الدوام عليه فإن الله لا يمل من الثواب، بينما تملل من العبادة. وقال: إن الله يحب من عبده مداومته على عبادته ولو كانت قليلة. يريد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للسيدة عائشة وصاحبتها أن دوام العبادة القليلة أكثر ثوابا عند الله من العبادة الكثيرة التي تشق على صاحبها أو صاحبتها، فيضطران إلى قطعها أو تقطيعها، فقليل دائم في الصلاة أو في العبادة خير من كثير لا يدوم. والرسول صلَّى الله عليه وسلم بذلك يريد للمسلم أن يرفق بنفسه في عبادة ربه، ولا يقسو عليها، ومرَّ بنا حديث عبد الله بن عمرو مع الرسول حين علم أنه يريد أن يصوم الدهر ونهيه عن ذلك، ولهذا الحديث روايات

مختلفة، منها أنه علم أنه يصوم النهار ويقوم (أي يصلى) الليل، فقال له الرسول لا تفعل، صُمْ وأَفْطِرْ، ونَمْ وقُمْ (أي صَلِّ) فإنَّ لجسدك عليك حقا، وإن لعينيك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزَوْرك (زُوَّارك) عليك حَقًا، وبحَسْبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشرة أمثالها، فإن ذلك صيامُ الدَّهْرِ. وكان الرسول ما يزال ينصح المتعمقين في الدين أن يخففوا عن أنفسهم، ومن قوله لهم الحديث الثالث: هلك المتنطعون. وكرر هذا القول ثلاث مرات، والمتنطعون هم الذين يشددون على أنفسهم في الدين، فيبالغون ويفرطون والسداد التوسط من غير إفراط ولا تفريط أو من غير مبالغة ولا تقصير.

ومن أحاديث الرسول المتداولة المشهورة حديثه الرابع: إن هذا الدين متين أي قوى، فأوغل فيه برفق أي سِرْ فيه وابُلغ الغاية القصوى منه برفق، ولا تحمل على نفسك ولا تكلّفها وتشق عليها بما لا تطيقه، فتعجز، فإن المنبتَّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أي بعيرا أبقى، والمنبت: الذي أتعب بعيره حتى عطب ولم يستطع السير، فبقى في الطريق منقطعا، استعاره الرسول لمن يتعب نفسه في العبادة حتى لا يستطيع المضي فيها عجزا وعدم استطاعة. وكان قد آخى بين سلمان وأبى الدَّرْداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذِّلة أي ليست مزدانة لزوجها، فقال لها ما شأنك؟ أي لماذا أنت متبذلة، فقالت له أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع لسلمان طعاما، فقال له: كُلْ فإني صائم، فال له سلمان: أنا بآكل حتى تأكل، فأكل معه، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم (يتهجد) فقال له سلمان: نَمْ فلما كان من آخر الليل قال له سلمان: قُم الآن، فصلَّيا جميعا، وقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، فأعْطِ كل ذي حَقٍّ حقَّه، وأتيا النبي صلَّى الله عليه وسلم، وذكر سلمان ذلك له، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: صدق سلمان. روى هذا الحديث البخاري. وفى بعض الروايات أنه قال لأبى الدرداء: سليمان أفقه منك. ويقول الله للرسول في سورة طه:(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) والشقاء في الآية فرط التعبد فهو لم ينزل القرآن ورسالته العظيمة على الرسول ليكون سببا في شقائه أو شقاء المؤمنين وتعبهم وعنائهم المفرط، بل أنزلنا (إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى) الله ويعبده دون عناء أو مشقة مفرطة، أو بعبارة أخرى دون إفراط في العبادة أو تفريط. والله ورسوله بذلك يدعواه المسلمين إلى التوسط في العبادة دون إرهاق أو عناء شاق.

والله- تقدَّس اسمه- في الآية الثانية يأمر المسلمين بالمحافظة على أداء الصلوات وما فيها من تحميده وتسبيحه، وأداء الصلاة الوسطى بين فروض الصلوات الخمسة وفى الحديث إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة في أول وقتها، وخص الله من بينها بمزيد التأكد الصلاة الوسطى، واختلف فيها هل هي صلاة الصبح لتوسطها بين صلاة الليل: المغرب والعشاء، وصلاة النهار: الظهر والعصر، وقيل هي صلاة العصر لتوسطها بين صلاة الصبح والظهر وصلاة المغرب والعشاء، والأصح أنها صلاة الصبح وهو قول عمر وابنه عبد الله وعلى والسيدة عائشة، والسيدة حفصة، وهو قول الإمامين مالك والشافعي، واحتج الشافعي بقول الله فيها: (وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) والقنوت لا يكون ألا في صلاة الصبح ثم هي التي تكثر فيها المعوقات وخاصة النوم، وهى التي امتدح الله فيها قراءة القرآن بقوله: (إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا).

والآية الثالثة تشير إلى قصة بستان كان صاحبه يتصدق بكثير من تمره وعنبه على المساكين، فلما مات رأى أبناؤه منع هذه الصدقة وجَنْى ما فيها من التمر والعنب قبل طلوع الشمس، حتى لا يتعرض لهم أحد المساكين. وسلط الله على البستان ما أحرقه فلما ذهبوا إليه لجَنْى الثمار بهتوا (قَالَ أَوْسَطُهُم) أي خيرهما أألحثكم على تسبيح الله وشكره. وعرفوا أنهم كانوا ظالمين لعزمهم على حرمان المساكين، وأخذوا يتلاومون. وإنما ذكرنا هذه الآية والتي قبلها لصلتهما بمعنى التوسط، فالصلاة الوسطى تتوسط صلوات اليوم، والأوسط خير إخوته وأعدلهم.

١٦- الحرية الدينية- التسامح

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ

البقرة ٢٥٦

٢- لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ

البقرة ٢٧٢

٣- قُلْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)

الجاثية ١٤

٤- وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨)

الإنسان ٨

الأحاديث

١- عن ابن عباس أن رجلا مسلما من الأنصار كان له ابنان نصرانيان، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم: ألا أستكرههما (أي على الإسلام) فإنهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه على رسوله الآية: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (رواه ابن كثير في تفسيره.

٢- عن ابن عباس: كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بأن لا يتصدق المسلمون إلى على أهل الإسلام حتى نزلت آية: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ) فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألهم من كل دين (رواه ابن كثير في تفسير الآية).

٣- في الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما نقصت صدقة من مال ولا زاد الله عبدا بعفو إلا عزًّا (رواه مالك في الموطأ ومسلم في صحيحه).

obeikandl.com

٤- عن ابن عباس: كان الأسراءُ في بَدْرٍ من قريش مشركين، وأمر الرسول أصحابه أن يكرموهم فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء (رواه ابن كثير).

الآية الأولى (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين) المراد بالدين فيها الإسلام وحكمها عام فلا يُكْرَهُ أحد على الدخول فيه، إذ الإسلام يكفل للناس الحرية الدينية، فلا يجبر أحد على الدخول فيه مكرها قهرا، بل يترك الناس وما اختاروا لأنفسهم. وبذلك يضرب الإسلام أروع مثل للحرية الدينية، وفى ذلك يقول الله لرسوله منكرا عليه شدة حرصه على إيمان أهل مكة: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِين) أي أنه ينبغي أن يترك للقرشيين حريتهم في اتباع الإسلام فإنه واضح بدلائله وبراهينه، ولا يحتاج إلى كثرة الحث من الرسول على الدخول فيه. وشِقٌّ ثان لهذه الحرية الدينية في الإسلام هو معاملته لأهل الكتاب من النصارى واليهود بالحسنى، وتوضح ذلك معاهدة الرسول لنصارى نجران وفيها يقول:

«لنجران وحاشيتها جوارُ الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملَّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم (كنائسهم) وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، ولا يغيرَّ أُسْقُف من أُسْقِفِيَّته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دِيَةٌ ولا دم جاهلية. ومن سأل منهم حقا فلهم النَّصَف غير ظالمين ولا مظلومين».

وهي وثيقة في عهد الرسول ظلت تحمل قواعد التعامل السمحة للمسلمين مع أهل الكتاب في جميع الأقطار الإسلامية شرقا وغربا، فمعابدهم تحترم ويؤدون شعائرهم الدينية بحرية كاملة دون أي إزعاج لهم. ويزيدنا بيانا في هذا التسامح الإسلامي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأهل إيليا (بيت المقدس) النصارى وفيه يقول:

«هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصُلْبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهْدَم ولا يُنْتَقَصُ منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضارُّ أحد منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود (كما طلبوا). وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية.. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين».

والجزية التي كانت تفرض على أهل الكتاب في الأقطار الإسلامية إنما كانت ضريبة دفاع لا تؤخذ إلا ممن يصلحون للتجنيد كانوا يُعْفَوْن منه، ولذلك كانت لا تؤديها المرأة ولا الشيخ ولا الصبي ولا الرهبان، وكانت زهيدة إذ لم تكن تزيد عن دينار- غالبا. وهذا العهد للخليفة عمر بجانب معاهدة الرسول لنصارى نجران ظلا معًا القواعد المتبعة في معاملة المسلمين لأهل الكتاب شرقا وغربا طوال العصور الإسلامية إلى العصر الحديث. وتُرْوَى أحاديث مختلفة عن التعامل بالحسنى مع أهل الكتاب وأن لا يؤذيهم المسلمون أي إيذاء أو يضروهم أي ضرر.

والآية الثانية نزلت بإباحة الصدقة على الكفار، وكان الرسول صلَّى الله عليه وسلم ينهى المسلمين عن التصدق على فقرائهم أملا في أن تدفعهم حاجتهم إلى اعتناق الإسلام، وكأنه يريد منهم أن يسلموا قَسْرًا أو إجبارا، فنزلت الآية تلفت الرسول صلَّى الله عليه وسلم إلى أن واجبه إنما هو تبليغ الدعوى إلى الإسلام والإرشاد إليه، أما إسلام الناس ودخولهم في دينه فراجع إلى حريتهم واختيارهم دون قهر أو إلجاء. والله يقول للرسول صلَّى الله عليه وسلم إنك لست مكلفا بهدايتهم فلا يمسّك حزن لعدم إسلامهم ودَعِ المسلمين يتصدقوا على فقرائهم. وهو تسامح عظيم معهم إذ يطلب الله من الرسول والمسلمين أن يتصدقوا على الفقراء من مشركي قريش أسوة بتصدُّقهم على الفقراء من المسلمين، ويقول (وَلَكِنَّ اللهَّ يَهْدِي مَنْ يَشَاء) أي أن هدايتهم إلى الإسلام مفوضة إليه وهو لا يجعلها قهرا ولا إجبارا. ويحض الله على الصدقة عامة، فإن من ينفق فثوابُ إنفاقه راجع إليه ما دام يبتغى وجه ربه سواء أنفق على مسلم أو على كافر، وما يبذل أي صدقة أو نفقة إلا ولها أجر عظيم يوفِّيه له ربُّه.

والله- تقدس اسمه- يطلب من المؤمنين في الآية الثالثة أن يعفوا عن أذى المشركين وكان إيذاؤهم لهم قد اشتد وعنف، ومع ذلك يطلب الله منهم العفو والصفح مع ما كان يستشعره كفار قريش من الصلف والجبروت، يريد أن يسود بمكة الهدوء والسلام، ولعل كثيرين من المشركين يتدبرون موقفهم العنيف من الإسلام ويعتنقون الدين الحنيف. وهى أيضا محاولة ربانية كريمة ليستشعر المسلمون التسامح مع المشركين إلى أقصى مداه، إذ مع إيذائهم الشديد للمسلمين يطلب الله- جل وعز- منهم الصفح عنهم مع إشراكهم وكفرهم وأنهم (لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهَّ) أي لا

يسألونه فضله ولا ينتظرونه، لأن قلوبهم انطوت على الكفر به وبنعمه. وربما كانت الأيام في الآية يراد بها أيام الجزاء في الآخرة وأنهم لا يؤمنون بالمعاد ومع ذلك يطلبا لله ممن يؤذونهم الصفح عنهم والعفو. وهو تسامح لا يماثله تسامح، ويقول الرسول صلَّى الله عليه وسلم في الحديث الثالث: ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وقد منح الله هؤلاء المسلمين الذين آذاهم مشركو قريش عزا عظيما بينما أذلَّ المشركين ذلا كبيرًا في بدر وغير بدر.

وفى الآية الرابعة: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) يصف الله- جَلَّ شأنه- المسلمين بأنهم يطعمون المحتاجين الطعام مع حبه أي أنهم يؤثرونهم به على أنفسهم بينما هم يحتاجونه، ومع ذلك يقدمونه للمسكين واليتيم من المسلمين كما يقدمونه للأسير من الكفار والأعداء شفقة عليه. ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث الرابع عن ابن عباس في أسرى بدر من المشركين، إذ يقال إنهم كانوا سبعين رجلا، وأمر الرسول أصحابه أن يكرموهم، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم حين يحضر الغداء.

وكل هذه صور عظيمة من التسامح الذي أراد الله للمسلمين أن يستظهروه في معاملتهم لمن يخالفونهم في دينهم من أهل الكتاب سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو حتى لو كانوا مشركين، وبذلك فرض على المسلمين التعايش مع كل الناس في محيط أمتهم قائلا: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ): وحتى المقاتلين منهم حين يأسرهم المسلمون يطلب إليهم أن يطعموهم ويكرموهم. وصدَر الرسول دائما عن هذا التوجيه، أو هذا القانون الرباني، فقد عايش المسلمون بعهد الرسول اليهودَ فترة وعايشوا نصارى نجران وعايش الخلفاء الراشدون ومعهم المسلمون أربع ديانات وأصحابها: المسيحية واليهودية والمجوس عبدة النار والصابئة عبدة الكواكب، فقد عاملوا أصحاب الديانتين الأخيرتين معاملة أهل الكتاب على نحو ما سنَّها الرسول صلَّى الله عليه وسلم في عهده السالف لأهل نجران وبالمثل الخليفة عمر بن الخطاب في عهده السالف لأهل بيت المقدس. فمعابدهم وأموالهم جميعا تحترم ويؤدون شعائرهم بحرية تامة ولا يكرهون بأي صورة على الإسلام، ويؤدون الجزية وهى- كما ذكرنا- كانت ضريبة دفاع على القادرين على حمل السلاح وحدهم.

وهو تسامح عظيم لم يعرف لأي دين ولا لأي أمة قبل الأمة الإِسلامية وشريعتها السمحة التي شرعت وحدة الإِنسانية والمساواة بين الديانات إلهية وغير إلهية وبين جميع الأجناس والأعراق والشعوب، مما جعلها بحق ديانة عالمية تقر الخلاف الديني بين الجماعات وتمسك كل جماعة بدينها مادامت مسالمة لجماعة المسلمين. فلا عجب إذا وجدنا في هذا المناخ الإسلامي الحضاري ذوى النحل المختلفة يجتمعون في مجالس المتكلمين والعلماء يتحاورون في نحلهم ويتناظرون بحرية تامة، من ذلك مجلس بالبصرة، يقول صاحب النجوم الزاهرة في الجزء الثاني ص ٣٩: «كان يجتمع في البصرة عشرة في مجلس لا يُعْرَف مثلهم: الخليل بن أحمد صاحب العروض سنيّ والسيد الحميري الشاعر شيعي رافضي وصالح بن عبد القدوس ثَنَويّ (على دين مانى) وسفيان بن مجاشع صُفْري من الخوارج وبشار بن برد الشاعر خليع ماجن وحماد عجرد زنديق وابن رأس الجالوت الشاعر يهودي وابن نظير النصراني متكلم وعمرو ابن أخت الموبذ مجوسي وابن سنان الحرَّاني الشاعر صائبي. ومجالس أخرى مشابهة كان يجتمع فيها العلماء والمتكلمون وأصحاب الملل والنحل في البصرة وفى بغداد ويتجادلون ويتحاورون، مما يصور تسامحا إلى أقصى الحدود بين المسلمين وأصحاب الديانات السماوية وغير السماوية. وفى جِذوة المقتبس للحميدي بترجمة أندلسي يسمى أحمد بن سعدي أنه حضر في بغداد مجلسا لأهل الكلام في القرن الرابع الهجري جمع الفرق كلها: المسلمين من أهل السنة والبدعة، والكفار من المجوس، والدهرية والزنادقة، واليهود والنصارى. ولما غَصَّ المجلس بأهله تناظروا بالحجج العقلية وما يحتمله النظر والقياس. ولا ريب في أن هذا التسامح للمسلمين سلوك إسلامي حضاري، وهو صورة كبرى من صور عالمية الإِسلام وانفتاحه على الديانات إلهية ووثنية وعلى الثقافات المختلفة.

١٧- العـدل

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩)

الرحمن ٧، ٨، ٩

٢- ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ

النساء ٥٨

٣- ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

النحل ٩٠

٤- وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)

الحجرات ٩

الأحاديث

١- قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا من البغي، مع ما ينتظر صاحبه من عقوبة في الآخرة (رواه ابن كثير في تفسيره).

٢- عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم قال: سبعة يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه، وأولهم إمام عادل (رواه مسلم في كتاب الزكاة، والبخاري وابن حنبل في مسنده والنسائي).

٣- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله مع القاضي ما لم يَجُرْ فإذا جار وكَله إلى نفسه (رواه ابن ماجه في كتاب الأحكام).

obeikandl.com

٤- عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: إنَّ المقسطين الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن (رواه مسلم ففي كتاب الإمارة).

والله في الآيات الأولى يقول إنه وضع الميزان أي العدل في خلقه للسماوات والأرض بحيث أصبح قانونا عاما ينتظم به الكون وموجوداته، فكل شيء فيه خُلق بالعدل في نفسه فلا يطغى فيه جزء على جزء، ومع غيره فقد وُضع مع الموجودات بقسطاس محكم غاية الإحكام، بحيث يسودها جميعا قوانين عدالة عامة دون أي تفريط في شيء أو إفراط. ويكفى أن ننظر إلى ما أنعم الله به على الإنسان من كفيه، فإنه لم يجعل الكف دون أصابع كخُفِّ البعير ولا جعلها ذات قدر واحد، بل جعلها متفاوتة في القدر حتى ينتفع بها الإنسان في الإمساك بالأشياء والقبض عليها، وهو معنى قوله تعالى في سورة الفرقان: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) أي سوَّاه وأوجده في صورة مقدرة تقديرا محكما مضبوطا لأداء ما خُلق له، صورة سنَّتها إرادة الله وحكمته العليا، صورة كاملة، كما قال في سورة طه إنه (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) أي أنه أعطى كل شيء من الموجودات هيئته الخاصة وما يحتاجه، فتكونت بذلك الأجناس والأنواع والفصائل والأفراد، في صورة مقدرة تقدير عدالة محكمة غاية الإحكام.

ويقول الله في الآية الثانية:)أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ(واختلف المفسرون في كلمة الميزان في الآية، فقيل المراد بها العدل كما في الآية السابقة لها والمراد بالطغيان البغي أي لا تبغوا في ميزان العدل الذي أنزلناه في القرآن والذي يدعوكم إلى الإنصاف في المعاملة وأن لا ترتكبوا أي ظلم. وقال بعض المفسرين المراد بالميزان في هذه الآية والسابقة لها الميزان الحقيقي، والمراد بالطغيان الحيف فيما يوزن زيادة ونقصا، فكل منهما طغيان واعتداء وبغى. والأولى أن يكون المراد بالميزان في الآية العدل الذي جعله الله قانونا وجوهرا ثابتا في خلقه. ولو أن المعتزلة- في العصر العباسي- تنبهوا إلى ذلك ما أتعبوا أنفسهم في إثبات وجوب العدل على الله، وهو يلزم به نفسه لا في الكون والحياة الدنيا فحسب، بل أيضا في الآخرة إذ يقول: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) وهى موازين عدالة إلهية دقيقة منتهى الدقة، وهى عدالة أراد الله للمسلمين وشريعتهم أن تعمَّ لا في موازين الشراء والبيع

ومكايلها فحسب، بل أيضا في كل ما يأتون ويصنعون من الأمور بحيث لا يبغي قوى على ضعيف ولا قادر على عاجز ولا غنى على فقير، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول: ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا من البغي أي الظلم مع ما ينتظر صاحبه من عقوبة في الآخرة.

والله- عزَّ سلطانه- يأمر المسلمين في آية سورة النساء إذا حكموا بين الناس في القضاء أو في المصالحات حكموا بالعدل الذي لا تصلح حياة الأمة والأفراد بدونه، إذ يصبح كل صاحب حق آمنا مطمئنا على حقه، أما إن كان الحاكم ظالما فإن حياة الأمة تصبح مدلهمة بشعة، وتغيب عن الناس الثقة والطمأنينة، وكيف يطمئنون أو يثقون في سلطان حاكم باغ يقوم حكمه على الاستطالة والقهر. ولذلك شدَّد الله وشدَّد الرسول مرارا على أن يكون الحاكم عادلا حتى يعيش الناس في أمان واطمئنان ومساواة تجعلهم في مأمن من كل عبث بحقوقهم ومن كل طغيان. ويروى أن إمبراطور بيزنطة أرسل إلى الخليفة عمر رضى الله عنه هدايا من الثياب، فلما دخل رسوله المدينة سأل عن دار الخليفة، فدلوه عليها، ووجدها بيتا صغيرا وعليه باب قديم، وكان يظنها قصرا. ولم يجده، وقيل له إنه خرج إلى السوق لحاجة له ولمراقبته، فمضى يطلبه، وتصادف أن وجده نائما في ظل حائط، ولا حرس، فقال تَوًّا: عدلتَ فأمنتَ فنمتَ حيث شئت، وأمراؤنا ظلموا فاحتاجوا إلى الحراس والحصون. وبدون ريب إشاعة القاضي والحاكم للعدل في الأمة يشيع فيها الرضا ويعصمها من الخوف والقلق ويجعل حياتها رائقة مشرقة، ولذلك يشيد به الرسول صلَّى الله عليه وسلم في الحديث الثاني: ويقول إن الإمام العادل واحد من سبعة يظلهم الله في ظله يوم القيامة يوم لا يظل إلا ظله. أما إذا عبث الحاكم بأمانة الحكم وقطع الصلة بينة وبين العدل في حكمه، فلم يأمر بإعطاء صاحب الحق حقه، ولم يُسَوِّ بين الناس فيما لهم من حقوق، بحيث يرد إلى كل شخص ما يستحقه، حينئذ يصبح حاكما جائرا، ويتخلَّى الله العظيم العادل عنه ويكله أو يتركه إلى نفسه، حتى يعرض عليه يوم القيامة، وهو يحمل ذنوب ظلمة على ظهره، ويعاقبه الله عقابا شديدا.

وفى آية سورة النحل يأمر الله بالعدل أمرا عاما كل مسلم، فعليه أن يكون عادلا في كل ما يتصل بذاته من حقوق، فيؤديها، كما يؤدى بعدل جميع عباداته وجميع صور المعاملات للأقارب وللناس، أما لله فيؤدى له حقوقه من العبادات ومن كل ما أمرنا به، وأما للأقارب فيكون بارًّا بهم،

ولا بد أن يلتزم العدل في عشرتهم، وعشرة زوجته وأبنائه، وعشرة أصدقائه وجيرانه. ولا بد أن يكون عادلا بصفة عامة في أقواله وأفعاله، يقول تعالى:(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا) ويطلب الله العدل حتى مع الأعداء إذ يقول: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) والشنآن شدة البغض، ومعه ومع العداء الشديد كما كان بين المسلمين والكفار يأمرنا الله بالعدل والإنصاف، ويسمِّيه مرارا بالقسط مرادفه كما في آية سورة الحجرات الرابعة، وهو بذلك يريد للمسلمين أن يصدروا في كل أعمالهم عن هذه الصفة المثالية التي تجعل حياتهم حياة سلام وصفاء وأمن ورضا وطمأنينة، ويبشر الرسول في الحديث الرابع المقسطين العادلين في حكمهم وأهلهم ببشرى عظيمة، إذ سيكونون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وهى بشرى ضخمة يستحقها هؤلاء العدول الجديرون بها من ربهم.

obeikandl.com

١٨- العلم

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

التوبة ١٢٢

٢- وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا

طه ١١٤

٣- وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

الإسراء ٨٥

٤- قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر ٩

الأحاديث

١- عن معاوية قال رسول الله صَّلى الله عليه وسلم: مَنْ يُرد الله به خيرا يفقِّهه في الدين (رواه البخاري في كتاب العلم ومسلم في كتاب الزكاة).

٢- عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: مَنْ خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع (رواه الترمذي).

٣- عن أبى الدرداء قال رسول الله صَّلى الله عليه وسلم: مَنْ سلك طريقا يبتغى فيه علما سَّهل الله له طريقا إلى الجنَّة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العالم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. (رواه أبو داود والترمذي).

openkandil.com

٤- عن أبى أمامة قال رسول الله صَّلى الله عليه وسلم: فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم ثم قال إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير. (رواه الترمذي).

كان الله في سورة التوراة قبل الآية الأولى يحرض المسلمين بقوة على الحرب لإعلاء كلمة الله والجهاد في سبيل الدين الحنيف ونشره، وعقَّب على ذلك في هذه الآية بالحض على جهاد فريق منهم في التفقه بالدين الحنيف وشريعته وتعاليمها ليكونوا هداة لقومهم الذين دخلوا في الإسلام. وبذلك جعل القرآن التفقه في الدين لتأييد الإسلام مساويا للجهاد الحربي في نشره وتثبيته، فهو جهاد سلمى بجانب جهاد المحاربين المدافعين عن الإسلام، جهاد لا يقلُّ عنه مثوبة وشرفا. ويؤيد الرسول صَّلى الله عليه وسلم الآية بقوله إن من يُرِدِ الله به خيرا في دنياه وآخرته يفقهه في الدين، من التفقه وهو فهم ما يخفى ويدق من الدين عن طريق مدارسة أحكامه الشرعية، مما جعل المدينة- في عهد الرسول وبعده- تتحول إلى دار تعليم كبرى لأوامر الشريعة الإسلامية ونواهيها. وكان الرسول يبعث ببعض صحابته معلمين إلى مدن الجزيرة العربية وقبائلها يعلمون المسلمين الجدد شريعة دينهم في العبادات والمعاملات والسلوك القويم الخلقي والاجتماعي والإنساني. وما إن انتقل الرسول صلَّى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ونشأ عصر الفتوح من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي إلا ونجد المسلمين في كل بلد يفتحونه يبنون فيه مسجدا ويتجرد نفر منهم لتعليم أهله الشريعة الإسلامية. وسرعان ما تعرَّب هذا العالم الشاسع ودخلت كثرة من سكانه في الدين الجديد، وقامت في بلدانه حركة تعليمية واسعة. وبذلك لم يكن الإسلام دينا فقط بل كان أيضا شريعة وعلما وتفقها وحضارة.

والأمر في الآية الثانية موجَّه إلى الرسول- والمسلمين معه- إذ كل أمر موجَّه إليه في القرآن الكريم موجه أيضا إلى المسلمين، والآية تأمر الرسول والمؤمنين أن يدعوا الله دعوة مخلصة أن يزيدهم علما، وفى ذلك ما يُعْلى من العلم. والله- جلَّ شأنه- دائما يُعْلى منه إعلاء عظيما، وقد جعله ميزة عظمى لآدم أبى البشر، إذ قال للملائكة في أوائل سورة البقرة: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِين) وعجزوا فقال: (يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِم) أمرهم بالسجود له ﴿فَسَجَدُوا ﴾. والله- بذلك- جعل منزلة علم آدم بالأسماء فوق منزلة تسبيح الملائكة بحمده وتقديسه مما يرفع مكانة العلم إلى أقصى الدرجات، وهو ما دفع المسلمين إلى معانقة العلم في جميع عصورهم.

والآية الثالثة تشير إلى أن علم الإنسان بالموجودات والحقائق محدود بل هو علم قليل، ويتلطف الله بالمسلمين في كتابه العزيز، فيشير إشارات مختلفة إلى العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية والطبية، ومن إشاراته إلى العلوم الأولى قوله في سورة البقرة: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون). والآية تذكر خلق الله للموجودات في الكون سماء وأرضا وإلى جريان الفلك في البحار بما يعود على الناس بالنفع من العروض والتجارات، والرياح تدفعها وتهتدي بالنجوم ليلا في مسيرتها. وتذكر الآية سقوط المطر من السحاب وإحيائه الأرض بعد موتها وما نشر الله فيها من الدواب. وفى آيات كثيرة يذكر الله شقَّ الأرض وإنباته للزروع فيها من كل صنف ويقول (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) ويتكرر ذلك في القرآن كثيرا كما تتكرر الإشارة إلى العلوم الفلكية والرياضية في مثل قوله تعالى بسورة يونس:(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَاب). ومنازل الشمس أو بروجها اثنا عشر بعدد شهور السنة، ومنازل القمر ثمانية وعشرون موزعة على منازل الشمس، ويقول الله- جَلَّ وعزَّ- إنه جعلها كذلك (لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَاب) أي لتعلموا حساب الأوقات من الأيام والليالي والشهور لمعرفة معاشركم وفروض دينكم من أوقات الصلاة والصوم والحج وغيرها. وفى القرآن الكريم إشارات مختلفة إلى علم الطب، وعُقدت في القاهرة مؤتمرات متعددة لبيان ما في القرآن الكريم من مسائل الطب، وبخاصة في آيات سورة (المؤمنون) المعجزة الطبية الربانية التي تصور بدقة أطوار الجنين حتى يتخلق كائنا حيا. وهذه الإشارات الإلهية إلى تلك العلوم المختلفة هي التي جعلت العرب بعد الفتوح الإسلامية يكبُّون على كل ما لدى اليونان والسريان والفرس والهنود منها فيترجمونها وينقلونها إلى العربية ويضيفون إليها إضافات شتى

جعلت لهم دورا عظيما في تاريخ العلوم الإنسانية، دورا علميا حضاريا باهرا، استحال منارات لأوربا في نهضتها العلمية الحديثة.

ويقول الله- عزَّ شأنه- في الآية الرابعة إنه لا يستوي العلماء والجهال، إذ يدرك الأولون الأشياء على حقائقها، بينما يضطرب الثانون إزاءها فلا يدركونها إدراكا سليما. ويتميز العلماء بأنهم لا يقعون في خطأ إذ يعصمهم علمهم منه، بينما الجاهل يخبط خبط عشواء. وتنكشف للعالم الحقيقة فيشعر إزاءها بأنس، وكلما اكتشف حقيقة لازمة هذا الأنس كما لازمته لذة العلم، وهى لذة معنوية تفوق أي لذة. وينوه الله بالعلماء مرارا وتكرارا في القرآن الكريم من مثل قوله: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات) وما أعظم تنويهه بهم وتكريمه لهم إذ ضمهم إليه في سورة آل عمران وإلى الملائكة في الشهادة بوحدانية الله وتفرده بالألوهية قائلا: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). وينوه الرسول صلَّى الله عليه وسلم بهم مرارا وتكرارا كما في الحديث الثالث، إذ يجعل الطريق الذي يبتغون فيه علما يُسْلم مباشرة إلى طريق من طرق الجنة، بل إنه يقول إن الملائكة تخفض أجنحتها لطالب العلم رضا بصنيعه، ويستغفر له كل من في الأرض تكريما وإعزازا. وما يزال الرسول صلى الله عليه وسلم يصعد بالعالم درجات حتى ليجعل فضله يفوق فضل العابد، بل إنه ليجعل منزلته بالقياس إلى العابد الناسك كمنزلة القمر المنير بالقياس إلى سائر الكواكب. وبالمثل الحديث الرابع الذي يجعل الرسول فيه فضل العالم على العابد كفضله على أي صحابي، وهو شرف لا يدانيه شرف. ويقول أيضا تشريفا له لا يماثله تشريف إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها والحوت في البحر ليدعوان لمعلمي الناس العلم. فلا عجب بعد كل ما ذكرته من منزلة العلم والعلماء عند الله ورسوله أنْ تُشْغَفَ أمة الإسلام بالعلم وأن يبهرها فتعيش له وتعيش بها وتَنْقَضُّ على عالمه الرائع انقضاضا، وسرعان ما تتملكه ويصبح عالمها قرونا متعاقبة.

١٩- العقلانيَّة

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

البقرة: ١٦٤

٢-هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)

الأعراف: ١٧٩

٣- ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

النحل: ١٢٥

٤- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا

الحج: ٤٦

الأحاديث

١- عن النعمان بن بشير قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن وبينهما مشتبها.. ألا وإن في الجسد مَضْغَة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب (رواه البخاري في كتاب الإيمان).

٢- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من عبدٍ إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه يبصر بهما أمور دنياه وعينان في قلبه يبصر بهما أمور دينه (رواه كنز العمال).

obeikandi.com

٣- مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بقوم يتفكرون، فقال لهم: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته (رواه اللالكائى في السنة والبيهقي في الشعب).

٤- عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه مالا فأنفقه في الحق وآخر آتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها ويعلمها (رواه البخاري في كتاب الأحكام).

يقول الله في الآية الأولى إن في إبداع خلق السماوات التي تبدوا كقبة زرقاء فوقنا وما فيها من كواكب ونجوم، وخلق الأرض وما فيها من بحار وجبال وأنهار وزروع، وفى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ظلمة وضياء ﴿و الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاس﴾ من ركوبها وحمل تجاراتهم، وإن فيما ﴿ أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ بأنواع النباتات والأشجار والأزهار ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد موت زروعها ﴿وَبَثَّ فِيهَا ﴾ ونشر فيها أنواع الدواب، مع تصريف مهاب الرياح شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وبالمثل تصريف السحاب المسخر المنقاد بين السماء والأرض من جهة إلى جهة لينزل بها ماءه، فتحيى ويعود إليها الحسن والنضارة. إن في ذلك كله ﴿لَآيَاتٍ﴾ على قدرة خالق الكون الباهرة لما تشهد به من نظام كوني بديع محكم، صَنَعَه إله يتصف بتمام القدرة وتمام العلم وتمام التدبير وتمام الحكمة. وتطلب الآية من المسلمين أن يفزعوا إلى عقولهم ليتأملوا بدقة في خلق هذا الكون العظيم. وما أشبه عقولهم بمصابيح تهديهم بعد التأمل وطول النظر في الكون إلى أنه له موجدا يقوم على خلقه وبَثِّ أنظمة وقوانين فيه تكفل له البقاء وأن يسير في مجراه إلى الغاية التي أرادها موجده ومدبره ومبدعه، وهو مبدع ومدبر واحد لا شريك له، إذ لو كان له شريك لاضطرب نظام العالم. ودائما الله في القرآن الكريم يعرض نظام الكون المحكم على عقل الإنسان ليشهد شهادة عقلية بأن هذا النظام صنعه ودبَّره إله واحد في ذاته وفى أفعاله الكونية، ويسمى الرسول العقل كما في الحديث الأول- وكما تسميه العرب- القلب، وتكرر هذا الاسم في الذكر الحكيم، ويقول الرسول إنه إن صلح صلح الجسد كله وإن فسد فسد معه، فهو زمام حياته جسديا وفكريا ودينيا. ويشيد الله به في سورة الأحزاب مسميا له باسم الأمانة، إذ يقول تقدس اسمه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ والأمانة في الآية هي العقل الذي ميز الله به الإنسان من

سائر المخلوقات بما يهديه إليه من طرق الهدى في اعتناق الإسلام. وهو الذي كفل للحياة الإنسانية أطوارها في كل ما يتصل بها من الحضارة والعلوم، وهو الذي ميز الإنسان من جميع الموجودات والكائنات في السنوات والأرض بفكر حر سوَّى به حياته وهداه إلى كل ما يعمله بإرادته وبصيرته، بخلاف الجبال والجمادات والكائنات والحيوانات، فهي جميعا تخضع لقوانين ملزمة جبرية دون أي اختيار أو إرادة.

وهذا العقل العظيم جعله الله في القرآن الكريم الحكمَ في الإسلام وشريعته الإلهية داعيا له دعوة كبرى تكررت في سورة المختلفة مئات المرات لينظر الإنسان في الكون نظرًا عقليًا، حتى يكون إيمانه بالإسلام عن عقل وبَيِّنة، فيؤمن بوجود الله ويوحِّده عن بصيرة. والله عز شأنه- بذلك يجعل الإسلام دينا عقليا، وهو ما جعل الرسول يقول في حديثه الثاني إن لكل شخص أربع أعين: عينين ظاهرتين في وجهه كأعين الناس يبصر بهما أمور دنياه وشئونها المختلفة، وعينين باطنتين للعقل يبصر بهما أمور دينه.

وينعى الله في الآية الثانية حال المشركين وأنهم لم ينتفعوا بنعمة القلوب أي العقول التي أهداها إليهم في معرفته والإيمان بألوهيته ووحدانيته، ويقول إنهم عطلوها عن التأمل في ملكوت الله والتدبر، فلم تعد تفقه أو تدرك، وعطلوا أعينهم فلم تعد تنظر فيما خلق الله نظر اعتبار واتعاظ، وعطلوا آذانهم فلم تعد تنتفع بما تسمع من القرآن، ويقول الله إنهم كالأنعام لا عقول لهم ولا بصيرة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ منها إذا لا تبلغ بها حياتها أن تسقط مثلهم في مهاوي الضلال بما ألهمها الله معرفة مضارها كما ألهمها معرفة منافعها، أما المشركون فإنهم حجبوا عقولهم عن الاستدلال على وجود الله فهم أضلّ من الأنعام بما يتردون فيه من الهلاك، و﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عن الآخرة وما يُصَبّ على العصاة فيها من عذاب..

ويمر الرسول بقول فيسألهم ماذا تعملون؟ فقالوا نفكر في الله، فقال لهم- كما في الحديث الثالث- تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته. والرسول محق، لأن العقول تقصر عن معرفة جوهره، وكثيرا ما حاول ذلك المفكرون والفلاسفة، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح، واعترفوا بأن الذات العلية فوق إدراكهم وأن ليس من المستطاع معرفة كنهه، ولذلك ينبغي

الانصراف عن التفكير في ذاته إلى التفكير في خَلْقه الدال على وجوده ووحدانيته دلالة عقلية واضحة.

ويقول الله في الآية الثالثة لرسوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ وهى البراهين العقلية القاطعة كبرهان القرآن في سورة (المؤمنون) على وحدانية الله قائلا: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ والآية تستدل على نفى الشريك لله مطلقا إذ لو كان معه آلهة لانفرد كل إله بما خلق وتصرف فيه بعيدا عن شركائه من الآلهة، ولغلب بعضهم على بعض، فلم يكن بيد أحدهم ملكوت كل شئ، تعالى الله وتنزّه عما يشركون به. ويأمر الله رسوله أن يدعو بجانب البراهين العقلية بالوعظ. ويدخل القصص القرآني كله في الوعظ حتى لا يصيب المشركين من قريش والعرب ما أصاب الأمم البائدة التي كذبت رسلها فدمَّرها اغلله تدميرا. وبجانب الوعظ والبراهين العقلية يأمر الله رسوله أن يجادل مشركي قريش والكفار مجادلة حسنى لينة لا غليظة، وعن ابن عباس أنه لما نزل قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن الزِّبَعرى: لأخصمن محمدا فجاء النبي فقال: يا محمد قد عُبِد عيسى وعُبدَت الملائكة فهل هم حصبٌ أي حطب لجهنم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اقرَأ ما بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. والطرق الثلاثة: البرهان العقلي والعظة والجدل بالتي هي أحسن كجدل القرآن لليهود والنصارى، هذه الطريق في الآية الكريمة تجمع طرق الاستدلالات العقلية المستخدمة في القرآن بحيث يقال بحق إن الإسلام دين عقلي أو عقلاني. ويشيد الرسول في الحديث الرابع بمن آتاه الله الحكمة أو القوة البرهانية العقلية فهو يعلِّم للناس بها قضايا الدين ومسائله، وهو يصدر عنها في قضائه وأحكامه بين الناس.

ويعجب الله- عزَّ شأنه- في الآية الرابعة من كفار قريش الذين سافروا شمالا ورأوا بعض القرى المدمرة في طرقهم إلى الشام وما كان من مصارع المكذبين لرسلهم وكأنهم لم يسافروا فيها، إذ لم يعتبروا ويتعظوا، ولذلك تجعلهم الآية كأنهم لم يسافروا، وتقول بقية الآية: ﴿ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور ﴾ فالخلل ليس في أبصارهم، ولكنه في عقولهم مما يجعلهم يتخبطون في الشرك والضلال.

٢٠- إبطال الخرافة والسحر والطِّيَرَة والكهانة

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا

البقرة ٢٢

٢- وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ.. وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

البقرة ١٠٢

٣- قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ

يس ١٨

٤- فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ

الطور ٢٩

الأحاديث

١- عن عبد الله بن مسعود: سألت رسول الله صلى الله عليه وسم أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك (رواه البخاري في كتاب التوحيد).

٢- عن جندب الأزدي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حدُّ الساحر ضَرْبُه بالسيف (رواه الترمذي).

٣- عن قبيصة بن المخارق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العيافة والطِّيرة والطِّرق من الجِبْت أي السحر والكهانة (رواه أبو داود).

٤- قال صلَّى الله عليه وسلم: مَن أتى عَرَّافا أو كاهنا فسأله عن شيء فصدَّقه فيما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد (رواه مسلم في كتاب السلام وأحمد في سنده).

obeikandl.com

يقول الله في الآية الأولى: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا) ونظراء من الآلهة سواء كانت من الجمادات أو الطير أو الكواكب والنجوم فقد كان منهم من يتعبد للشمس مثل عرب اليمن وكانوا يسمونها اللات. وكانوا يضمون إليها القمر ويسمونه وَدًّا والزهرة ويسمونها العُزَّى، وعبدوا هذا الثالوث وقدسوه. وكانت عبادة اللات شائعة في الحجاز، وكان معبدها في الطائف وكانت دومة الجندل تعبد ودًّا أو القمر بينما كانت غطفان تعبد الزهرة. ويذكر الله بعض آلهتهم في القرآن الكريم، من ذلك قوله في سورة النجم ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾. ومناة كانت صخرة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ولعلها ترمز إلى إله الموت أو إله القضاء والقدر، ويقول تعالى على لسان المشركين: ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ وسُوَاع كان صنم هذيل، ويغوث صنم هوازن، ويعوق صنم همدان، وكان نسر صنم حمير، وهو يشير إلى الطائر المعروف باسمه. ووراء هذه الأصنام أصنام كثيرة للقبائل، وبلغت عِدَّتُها في الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لها: ثلاثمائة وستين صنما. وكان لهم طقوس وشعائر وقرابين كثيرة يقدمونها لآلهتهم وأصنامهم وسدنتها. ويسمى القرآن هذه الخرافات في دينهم الوثني باسم الطاغوت، وقد اقتلع من نفوسهم سيطرة هذا الدين وسيطرة خرافاته التي كانوا يؤمنون بها إيمانا شديدا وأحل مكانها الدين الحنيف وأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا معه أحدا. ويسأل ابن مسعود رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول أي الذنوب أعظم عند رب العزة، فيجيبه أن تجعل له نِدًّا في عبادته، وهى عودة خاسرة إلى الوثنية وخرافاتها الكاذبة.

والآية الثانية تتحدث عن السحر والشياطين، وهم فيها غالبا- شياطين الأنس، والآية تصف اليهود بأنهم اتبعوا ما يتلوه السحرة من كتب السحر ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي في عهده، يقولون إن حكمه كان يقوم على السحر، وينقض الله قولهم قائلا إن حكمه وملكه لم يكن يقوم على السحر وإلا كان كافرا ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ ولكن كفر السحرة الذين يعلمون الناس السحر. والسحر: تمويه يأتيه الساحر بحيل فيما عُلم ظاهره وخفي سببه. والعرب كانوا يعتقدون أن السحر يقلب حقائق الأشياء ويطوع المسحور للساحر إلى غير ذلك من تخيلات وهمية. وقد حكم الله في الآية على السحرة بأنهم كفروا وما كفر سليمان،وكأن هذا حكم الساحر في الإسلام فهو كافر، ولذلك يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني: حدُّ الساحر ضَرْبُه بالسيف» أي قتله. وقد

أنكر المعتزلة وجود السحر، لأنه في حقيقته تمويه بحيلٍ يأتيها الساحر تجعل الشيء بسبب خفي يُرَى بغير صورته الحقيقية. ويرى الإمام مالك أن الساحر يقتل ولا يستتاب لأن السحر كفر وشرك، وبالمثل قال أبو حنيفة، وقال الشافعي صاحبه يكفر ويستتاب. والإسلام بذلك يبطل السحر إبطالا جازما، والمقصود بذلك من يضرون الناس أو يفسدون علاقاتهم بإيهامهم قدرتهم على ذلك، أما السحرة الذين يظهرون أحيانا على المسارح باعتمادهم على خفة الحركة وخفة اليد فيما يعرضون من أشياء لتسلية الناس فليسوا من هذا الباب وليسوا مقصودين، إنما المقصودون من يزعمون صلتهم بأرواح النجوم وأرواح الجن وأنهم يسخرونها لأغراضهم وأغراض من يقصدهم في سحر إنسان أو موته أو سرقته أو تفرقة بينه وبين زوجته. ومن باب الكذب ما يروى من أن ربيعة بن الأعصم اليهودي سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول الله في سورة المائدة لرسوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ.. وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فكيف يسحره يهودي والله عصمه من الناس جميعا، وهو خبر واضح البطلان.

والآية الثالثة جاءت في قصة الرسل بسورة يس الذين أرسلوا إلى أهل قرية بهدى الله وتوحيده وعبدته فكذَّبوهم وأجابوهم هازئين: ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي تشاءمنا. والتطيّر من الطِّيَرَة وهى التشاؤم، وأصلها أن العرب كانوا في الجاهلية إذا ارتحلوا نظروا في السماء إلى ما يلاقيهم من الطير، فإن مرَّ يمينا كان علامة يُمْن وسموه السانح، وإن طار يسارا كان علامة شؤم وسموه البارح، وإذا كان الطير جاثما أثاروه ليبصروا في أي جهة يطير ويسمى ذلك زجرا. وغلب استعمال كلمة التطير في معنى التشاؤم. واستخدمها القرآن مرارا بهذا المعنى كما في الآية السالفة. وفى الحديث أن الطيرة شرك، وإنما عُدَّت من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطير قد تجلب لهم خيرا أو تدفع عنهم شَرًّا إذا عملوا بموجب اتجاهها في طيرانها، فكأنهم أشركوها مع الله فيما يصيبهم من نفع أو ضر. وضم الحديث الثالث إلى النهى عن الطيرة النهى عن العِيافة وهى زجر الطير، إذ كانوا يثيرون طائرا أو غرابا، فإن لم يطيرا سانحين تشاءموا، وهى تابعة بذلك للتطير أو الطيرة. والطَّرق الضرب بالحصى وإيهام الضارب له قاصدَه بأنه يعرف مراده ويمينه الأماني بكلام وهمي مثل كلام الغجريات وضربهن للوداع ووشوشتهن له، وكل ذلك منهي عنه في الإسلام نهيا قاطعا، بل محرم تحريما باتا.

ويقول الله لرسوله في الآية الرابعة إنك بنعمة الله وفضله وحمده لست بكاهن كما يقول الجهلة من كفار قريش، والكاهن هو الذي يزعم أنه يعرف الأحداث والأخبار مما يقع في مستقبل الزمان كما يعرف الأسرار المضمرة في الصدور، وكان في الجاهلية كهنة متعددون مثل شِقٌّ وسَطيح، وكانوا يلقون على الناس كلاما مسجوعا مبهما يمكن أن يؤوَّل تأويلات مختلفة، وكانوا يزعمون لهم أنه من كلام الجن ألقوه إليهم. وكان كل منهم يزعم أن له من الجن تابعا يودّه ويألفه، ويسمَّى رَئِيًّا أي جِنِّيا يراه وينصره،ولا جنى هناك ولا تابع، إنما هي خواطر كانت تجيش بنفوسهم، فيرصفونها في أسجاع مبهمة يموهون بها على من يتعرض لهم بحاجة أو بسؤال زاعمين أن التابع جاءهم بها من الملأ الأعلى. وللكهَّان في الجاهلية أخبار وأقاصيص كثيرة توسَّع فيها الرواة وكلها من أكاذيبهم. وشدَّد الرسول صلى الله عليه وسلم في النهَّى عن الكهانة لما يزعم أصحابها- زعما كاذبا- أنها من علم الغيب، إذ لا يعلم الغيب إلا الله. وبلغ من تحريم الرسول لها ما ذكره في الحديث الرابع من أن من أتى كاهنا ليتنبَّأ له بشيء من الغيب في الأمور المستقبلة فقد كفر بالشريعة الإسلامية وما أُنزِل عليه من القرآن الكريم، وبالمثل من أتى عرَّافا وهو المنجِّم الذي يدعى النظر في النجوم بحسب مواقيتها ومسيرتها، وأنه يستطيع أن يعرف بها أحوال الكون والناس مما يتصل بالغيب. وكل هذه الصور من العرافة والكهانة والعيافة والطيرة والسحر نهى عنها القرآن الكريم والحديث النبوي وعدَّاها منافية لعقيدة الإسلام التي تقصر علم الغيب على الله وحده، وكما شددت في إبطالها شددت في إبطال الخرافات مرتقبة بعقول المسلمين إلى منازل فكرية رفيعة.

٢١- القضاء- القدر

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

البقرة ٧

٢- الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)

الأعراف ٥١

٣- وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧)

يس ١٨

٤- وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)

الجاثية ٢٢

الأحاديث

١- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتةٌ سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستعتب[١] صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الرَّيْنُ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه).

٢- قال الرسول صلى الله عليه وسلم: اللهم علمني هدايتي واحفظني من شَرِّ نفسي (رواه الترمذي).

---

(١) استعتب : طلب العتبى والرضا.

obeikandl.com

٣- عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه (حديثا قدسيا): يا عبادي إني حرمت على نفسي الظلم وعلى عبادي فلا تظَّالموا (رواه مسلم في كتاب البر والصلة، ورواه البخاري واللفظ لمسلم).

اختلف المفسرون في تفسير الآية الأولى اختلافات كثيرة مردُّها إلى أن منهم من أخذ بظاهرها وأن الله- جَلَّ شأنه- ختم على قلوب الكفار بالضلال خَتْما، يشبه ما تدركه الأبصار من الختم على الأوعية، فلا يهتدون أبدا إلى دين الله الحنيف. وكثير من المفسرين يرى أن الختم في الآية مجاز عن أن قلوب الكفار لا تنفذ إليها الهداية، وبالمثل أسماعهم لا ينفذ إليها شيء من هدى القرآن حين سماعه، وأبصارهم كذلك عليها غشاوة لا تنتفع بما ترى من آيات الله في خلقه للكون، وبالمثل قوله تعالى في سورة محمد: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ليس المراد- في رأينا- أنه أضل أعمالهم حقيقة، وإنما أراد أنه تركها بدون هداية منه، وبالمثل إضلال المشركين والكفار في القرآن كله كآية سورة إبراهيم: ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وآية سورة يس: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي أنه تركهم دون هداية وإرشاد لأنه منحهم العقل الذي يهديهم ويرشدهم ولم يهتدوا، يقول في سورة الأنعام ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ فمن لم تهده البصائر في القرآن وأعمى عينيه عنها تخبط في الضلال، وتلك مسئوليته كما في سورة يونس: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ذكر ابن كثير في تفسير الآية الأولى تعليقا على الحديث الأولى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله والطبع. والختم- بذلك- ليس سبب ضلالهم، وإنما هو نتيجة ضلالهم.

ولو أن الأسلاف تنبهوا إلى هذا المعنى ولم يطبقوه على آيات الختم والطبع وحدها في مثل قوله تعالى عن الكفار إنه طبع الكفر على قلوبهم فطبقوه أيضا على آيات الإضلال ما أثيرت قضية القضاء والقدر وهل الإنسان يصدر في أفعاله عن إرادته أو عن إرادة الله. وانقسم المسلمون إزاء ذلك إلى جبرية يؤمنون خطأ بأن أعمال الإنسان قدر مكتوب عليه ولا حول له ولا قوة إزاءه، وإلى قدرية يؤمنون بأن الإنسان حر الإرادة، فالكفار اختاروا الكفر والضلال حسب إرادتهم ومشيئتهم.

وتؤيد الآية الثانية فكرة أن الختم والإضلال إهمال من الله للكفار الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، ويقول الله إنه ينساهم يوم القيامة كما نسوا لقاءه فيه. والنسيان في الآية معناه الإهمال والترك، ويريد الله أن يحرمهم في هذا اليوم من رحمته جزاء لإهمالهم التصديقَ بالمعاد وأنهم سيحشرون إلى ربهم حاملين ذنوبهم على ظهورهم. ويأسى الرسول للمؤمن إذا أذنب فيقول إن علامة سوداء تتكون في قلبه، فإن تاب ونزع عنها وطلب الرضا من ربه جَلا قلبه وطهَّره، وإن لم يرعوا وأخذ يكثر من ذنوبه زادت هذه العلامة في قلبه حتى غطته، وذلك هو الرَّيْن في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ويقول الله في الآية الثالثة إنه أرسل إلى ثمود رسولهم صالحا لإرشادهم وأيده بآية الناقة التي أخرجها لهم من الأرض، وبذلك وضع لهم كل الأسباب لهدايتهم، فلم يستجيبوا لله ورسوله، وأحبوا العمى أي الضلال واختاروه على الهدى الذي حاول الله أن يهديهم إليه، إذ رفضوا هذا الهدى وأبوه إباءً شديدا، واختاروا لأنفسهم الكفر والضلال، فأهلكتهم بما اكتسبوا من الضلال والكفر بالله صاعقة سخرها الله لعذابهم عذاب ذل وهوان. ويؤكد الله مرارا أن الكفار الرافضين للإسلام يتبعون في كفرهم أهواءهم كقوله في سورة محمد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي أولئك الذين صمموا على الكفر متابعين في ذلك أهواءهم، فهم لم يُقْهَروا عليه، بل آثروه بمحض إرادتهم ومنتهى حريتهم. وهذه الآية- بدورها- تشهد بأن هدى الإنسان وضلاله في القرآن يرجعان إلى حريته المطلقة، فإما هدى ورشاد وإيمان بالله، وإما ضلال وتخبط وكفر به. فالمرجع في ذلك كله إلى الإنسان وعقله ونفسه، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في دعاء له: اللهم علمني هدايتي واحفظني من شر نفسي أي لا تتركني إلى نفسي واهدني حتى لا أضلَّ ولا أنحرف عن طريقك المستقيم.

ويقول الله في الآية الرابعة إنه خلق السماوات والأرض بالحق أي بالعدل، وهو سيسود في جزاء المسلم الطائع لله والكفار لربه يوم القيامة، فكل منهما سينال جزاءه بمقدار ما كسبت يداه في الإيمان والكفر، والكسب ما يجنيه الشخص من عمله لنفع نفسه، والمراد به في الآية والقرآن عامة ما يكسبه المسلم من العمل الصالح وما يكسبه الكافر من العمل السيئ، فكل منهما سيأخذ جزاء ما قدمت يداه في دنياه، وكرر الله ذلك في القرآن مرارا، وأنه لن يظلم أحد- كما قال في سورة

النساء- ﴿ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ وأيضا- كما قال فيها- ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١)﴾ وكيف يظلمون وهو أعدل العادلين الذي خلق الكون وكل ما فيه بعدل لا يماثله عدل.و يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» ويكرر في القرآن أنه بمنه ورحمته ولطفه لن يظلم أحدا أدنى ظلم يوم القيامة يقول في سورة الزلزلة ﴿فمن يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خَيرًا يَرَهُ. ومَن يعمل مثقال ذرَّةٍ شَرًا يَرَهُ﴾.

(١) نقيرا : النقرة في ظهر نواة التمرة.

obeikandl.com

٢٢- التقـوى

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى

البقرة ١٩٧

٢- يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

الأعراف ٢٦

٣- وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ

الحج ٣٢

٤- لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ

الحج ٣٧

الأحاديث

١- عن عدى بن حاتم الطائي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حلف على يمين ثم رأى أتقى لله منها فليأت التقوى (رواه مسلم في كتاب الإيمان).

٢- عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الدنيا حُلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا (رواه مسلم في كتابه الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار).

٣- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا بما به بأس (رواه الترمذي وابن ماجه).

٤- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل المسلم على المسلم حرام: عرضه وماله ودمه، التقوى ههنا (رواه الترمذي).

يقول الله- جَلَّ شأنه- في الآية الأولى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ من الزاد وأصله ما يحمله المسافر من الطعام في رحلاته الدنيوية، استعير في الآية لما ينبغي أن يحمله المسافر أو الراحل إلى الحياة الآخرة من أعمال البر والخير، ويقول الله إن خير زاد إلى الآخرة للمسلم التقوى لله أي الوقاية والحذر من أي محرَّم يغضبه والعمل على مرضاته بأداء فروضه، ويُرْوَى أن عمر بن الخطاب سأل أُبَىّ بن كعب عن المعنى الدقيق للتقوى في القرآن الكريم فقال أُبَيّ: أما سلكت طريقا ذا شوك قال عمر: بلى قال أَبَىّ فما عملت ؟ قال عمر: شَمَّرت واجتهدت، قال أُبَىَّ: فذلك التقوى.

وليست التقوى تجنب الذنوب: الكبائر والصغائر فحسب، بل هي أيضا أداء ما يرضى الله من الطاعات والعبادات، ولذلك كان معناها الشرعي الذي تدل عليه نصوصها في الذكر الحكيم هو امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه بأداء ما فرضه وأوجبه على المسلم وترك ما حرَّمه وأوجب الانصراف عنه ظاهرا وباطنا. وما يزال الرسول صلى الله عليه وسلم يحبِّب أصحابه في تقوى الله والحذر من أن يأتي المسلم شيئا يغضب الله ويسخطه عليه، ويقول في الحديث الأول: لو أن مسلما حلف على عمل شيء يظن أن فيه رضا ربه ثم رأى أن الانصراف عنه أتقى لربه فلينصرف ويكفر عن حلفه بصوم ثلاثة أيام أو بعتق رقبة، حتى لا يناله تقصير إزاء تقوى الله ورضاه.

والله- تقدَّس اسمه- يذكر في الآية الثانية مَّنته على الإنسان بأن ألهمه أن يتخذ لنفسه لباسا ماديا يستر به سوءاته وعوراته، وليس ذلك فحسب، فإنه ألهمه أيضا أن يتخذ لنفسه (ريشا) أي لباسا فاخرا يتزين به. ولما ذكر الله للناس- أو قل للمسلمين- اللباس الحَسِّي الفاخر أضاف ما أنعم به عليهم من اللباس المعنوي الباهر: لباس التقوى الذي يفتح أمامهم أبواب الجنة ليدخلوها من أي باب شاءوا وأرادوا. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته في الحديث الثاني إن الدنيا مغرية بطيباتها وما فيها من وجوه الترف والنعيم، وستقبل عليكم وتتملكونها فلا تغرنكم بلذاتها ومتعاتها واعلموا أن الله ﴿مُسْتَخلِفَكُمْ فِيهَا﴾ ومراقب ما تعملون، فاتقوها واحذروا أن تنغمسوا في شهواتها فتُغْضبوا الله الذي جعلكم خلفاءه فيها، وينبغي أن تحذروه وتمتثلوا أوامره

ونواهيه.

ويذكر الله في الآية الثالثة شعائره، وهى مناسك الحج، ويقول إن تعظيمها من تقوى القلوب السليمة التي تلهم أصحابها هذا التعظيم الديني الصادر عنها. والتقوى بذلك تميز روح المسلم والإِسلامَ الصادق الذي لا يشوبه رياء، لأنها تصدر عن القلوب المخلصة لربها التي يحقُّ لها أن تنعم بمتع الجنة لما يقترن بها من إخلاصها وطهارتها من كل إثم أو دنس. وبذلك نفهم إعلاء الله للتقوى في الذكر الحكيم لأنها ليست امتثالا لأوامر الله ونواهيه فحسب، بل هي أيضا شغف قلبي بتطبيقها لا يدانيه أي شغف، وهو شغف يجعل المسلم- كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث- يتحرج تحرجا شديدا إزاء عمل لا يرى به بأسا وينتابه شيء طفيف من الشك أن يكون به بأس، وهو بأس موهوم، فيدعه تقوى من الله وحذرا منه وخشية. وينوه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع بحقوق المسلم وحرمته على أخيه المسلم، ويقول إن عرضه أو شرفه وما له ودمه كل ذلك حرام على أخيه المسلم ويهتف: التقوى ههنا، فقد حرَّم الله على المسلم أن يمسَّ عرض أخيه المسلم أو ماله أو دمه بأي صورة من الصور، فكما أن دمه حرام، ويقتل به، قصاص حتمي، كذلك ماله فلا يأخذ منه شيئا إلا برضاه ولا يستحل منه شيئا لنفسه بأي طريقة من طرق الغصْب، وبالمثل عرضه أو شرفه لا يتناوله إلا تناولا كريما، فإن لم يتق الله وأخاه المسلم في ذلك كله استحق سخط ربه وغضبه وعقابه.

والله- جَلَّ شأنه- يقول في الآية الرابعة إنه لا يناله شيء من لحوم الأضاحي في الحج ولا شيء من دمائها مشيرا بذلك إلى ما تعوده في الحج زمن جاهليتهم من ذبحهم أضحياتهم لأهلهم وتلطيخهم لمناسك الحج بدمائها وتقطيع لحومها ووضع شرائحها عليها أو نصبها حول الكعبة قربانا لله فلا ينتفع بها أحد. والله بذلك يبطل هذه الصورة الوثنية الجاهلية، ويبقى على نحر الأضاحي أو ذبحها لينتفع الناس من الأقارب والأصحاب بالأكل منها ولينتفع الفقراء والمساكين من أهل الحرم. وهو بذلك يبطل أن تقدم لحومها قربانا إليه، فليس في ذلك شيء من تعبُّده، إنما يُعْبَدُ بالتقوى من الحجاج التي ينبغي أن تصحب نحر الأضاحي. وقد أكد ذلك في قوله بنفس السورة: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ فذكر اسم الله هو المراد بمناسك الحج والنزول بها والطواف عندها، وبعبارة أخرى تقوى الله وما يتصل بها من المشاعر القلبية إزاء

الامتثال لأوامر الله ونواهيه امتثالا يحقق للمسلم طمأنينة نفسية لا تماثلها ولا تعادلها أي طمأنينة، لأنها طمأنينة ربَّانِّية.

obeikandl.com

٢٣- التوكل

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)

التوبة ٥١

٢- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)

الأنفال ٢

٣- قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)

الزمر ٣٨

٤- وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)

مريم ٢٥

الأحاديث

١- عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أَنْبتُ (رواه مسلم في كتابه الذكر والدعاء والتوبة).

٢- عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من بيته قال: بسم الله، توكلت على الله (رواه أبو داود والترمذي).

٣- وعن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى في النار: حسبي الله ونعم الوكيل (رواه البخاري).

obeikandl.com

٤- عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا[١] وتروح بِطانا[٢] (رواه ابن حنبل في مسنده والترمذي).

يقول الله في الآية الأولى لرسوله: قل يا محمد لمن يتمنون لك وللمسلمين المصائب والكوارث لن نهتم ولن نكترث بها قد يلحقنا منها لأننا نؤمن أنها قدر من الله لنفع المسلمين، ولذلك لن نبالي بها، بل ستزيدنا إيمانا بأن الله أراد لنا خيرا. وهو خلق أو سلوك عظيم يريده الله لرسوله والمسلمين كما قال في سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾فهم يؤمنون إيمانا قاطعا بأن الله لابد ناصرهم، إذ هو مولاهم، عليه يعتمدون ويتوكلون توكلا ثابتا بأنه مؤيدهم.

ويذكر الله في الآية الثانية أن المؤمنين الكاملي الإيمان هم الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم، والوجل: خوف من فزع فهم حين يذكر اسم الله أو يذكر أمره ونهيه في القرآن الكريم أو يذكر ثواب الله وعقابه يصيب قلوبهم وجل شديد أي خوف وفزع مقرونان بالأمل والرجاء في نعيم الله وثوابه. وهؤلاء المؤمنون إذا تليت عليهم آيات القرآن ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ وقوة يقين في عقيدتهم، لما تجدد في نفوسهم من معانيها، وبما قد تتضمن من أوامر ونواهٍ، يستجيبون إليها استجابة قناعة وطمأنينة. وتتمة الكمال في إيمانهم أنهم يتصفون بفضيلة التوكل على الله، وقد نوه بها مرارا وتكرارا في القرآن كما في الآية الثالثة، ويذكر ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يردد توكله على ربه في دعائه له، وتذكر أم سلمة أنه كان يردده دائما مع بسم الله في خروجه من بيته شاعرا دائما هذا الشعور القلبي بالحاجة إلى العون الإلهي.والحديث الثالث لابن عباس يشير فيه إلى قصة إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم حين دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده ولم يجيبوه وأنه حطَّم أصنامهم فأجمعوا أمرهم على أن يوقدوا له نارا ويلقوه فيها، وحين ألقوه بها قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» مستجيرا بالله من قومه ومن النار. واستجاب له الله، فسلب من النار قوتها على إحراقه، وأحالها ﴿بَردًا وسلامًا﴾ كما قصَّ ذلك في سورة الأنبياء، ولم يجعله بردا شديدا مؤذيا بل جعله بردا خفيفا مقبولا أو كما قال جل شأنه: ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا ﴾.

---

(١) تغدو خماصا: تذهب صباحا جائعة.

(٢) تروح بطانا: تعود مساء ممتلئة البطون.

والتوكل على الله إنما يكون في الأعمال الطيبة التي ترضيه لا في الأعمال التي تغضبه وتستوجب إثما أو ظلماك أو عدوانا. وينبغي أن لا يظن أحد أن التوكل على الله يعني القعود عن العمل والسعي في الأرض، فذلك نكوص عن الكسب، وهو تواكل مُزرٍ، حتى ليصبح صاحبه مهينا يعيش بذلٍّ السؤال ومهانة الاستجداء. والتوكل في الإسلام لا يكون إلا مع الكسب والعمل، وهو لا يعارضهما فالتوكل محله القلب، والكسب والعمل محلهما الجوارح، فمن رام أمرا من الأمور وتوكل فيه على ربه لا يغلق بابه عليه ويقول إن الله سيحققه لي فإنه حينئذ يكون متواكلا لا متوكلا ولا يحقق الله له شيئا، والقرآن الكريم يلغي هذا التواكل إلغاء، بل يحرمه على أتباعه، واضعا مكانه التوكل وتفويض الأمر إلى الله، مع الشروع في طلبه بالأسباب المعروفة في كل أمر. وحتى السيدة مريم البتول حين وَضْعها لابنها عيسى وهي لا تكاد تقوم يقول لها الله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ فلم يأمرها بالسكون، بل أمرها بالحركة. وكان يمكنه أن يرسل الرطب إلى فمها، ولكنه لم يصنع ذلك، لأنه لو صنعه لخرجت من التوكل على ربها، الذي يقتضي منها السعي في المعاش، إلى التواكل المزري. ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا التوكل الإسلامي المعانق للكسب والعمل في الحديث الرابع الذي قال فيه لو توكلتم على الله توكلا مخلصا صادقا لرزقكم أقواتكم كما يرزق الطير تصبح جائعة وتطير باحثة عن طعامها، وتعود وبوطنها مملوءة، فالله لا يرزقها طعامها وغذاءها في أوكارها، بل يلهمها أن تطير غدوا ورواحا لتحصل عليه.

والرسول بذلك يدعو المسلم إلى أن يتوكل على ربه مع الكسب ومع الدأب على ما يريد عمله باتخاذ الأسباب التي تتيح له إنجازه، ويُذْكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرَّ بقوم فقال: مَن أنتم ؟ فقالوا نحن المتوكلون، ولاحظ أنهم قعود لا يعملون، فقال لهم: لا بل أنتم المتأكلون (الذين يأكلون عالة على الناس) إنما المتوكل رجب ألقى حبَّة في بطن الأرض، وتوكل على ربه، أي أنه متوكل على ربه ويكسب قوته بعرق جبينه، فيتعهد الحبَّ حتى تنشق الأرض عن نباته، ويتعهد النبات شهورا حتى يؤتى حصاده وثماره. وبالمثل المتوكل صاحب البستان فإنه لا بد أن يتعهد نباته وشجره فيسقيهما ويصلح من شأنهما، حتى يجنى ثمار إصلاحه وعمله. وقال على بن أبى طالب:

مَن ظَّن أن الطلب والاكتساب يناقض التوكل، فقعد في بيته، كان عن العقل خارجا وفى تيه الجهل داخلا وينبغي لأهله أن يداووه.

وكما أن الله- تقدَّس اسمه- كرر الطلب إلى المسلمين في القرآن الكريم بالتوكل عليه حق التوكل بالمثل كرَّر عليهم طلب السعي للكسب في البر والبحر وقال مرارا وتكرارا إنه سخَّر لهم الكون بأرضه وسمائه وشمسه وقمره ونجومه لينتفعوا به أكبر نفع ويستغلوه في معاشهم أكبر استغلال. ونكتفي بعرض آية سورة الملك: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ برا وبحرا ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ فالله قد ذلل الأرض للإنسان فلم يجعلها صلبة لا تصلح للغرس ولا للبناء، ولم يجعلها رخوة بحيث لا تمسك إنسانا ولا حيوانا. ولم يجعلها حارة، تخنق الإنسان ولا شديدة البرودة، بل جعلها وسطا بين الصلابة والليونة وبين الحرارة والبرودة لتكون سكنا للإنسان يضرب فيها معولة للزرع وللأبنية، وجعل لها خلالها الأنهار والعيون والآبار، وأنبت له فيها البقول والأشجار تُؤتى ثمارها كل حين وبساتين وحدائق من كل نوع. ويقول: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أي في جميع جوانبها حتى تفيدوا منها أكبر الفوائد ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ بأعمالكم وما تزرعون من البقول والحبوب والثمار والفواكه مختلفة الأنواع والألوان. والله بذلك وأمثاله- في الذكر الحكيم- يطلب من المسلمين بجانب التوكل المخلص عليه اتخاذ الأسباب لكسب الرزق والمعاش. ويجمع علماء المسلمين وفقهاؤهم على أن التوكل على الله لابد- كما قلنا- أن يقترن بالأسباب في طلب الرزق والمعاش من مأكل ومشرب وغيرهما من سنن الحياة.

٢٤- الخوف- الخشية

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)

الإسراء: ٥٧

٢- وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)

النازعات: ٤٠ و ٤١

٣- وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)

الرعد: ٢١

٤- إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢)

الملك: ١٢

الأحاديث

١- عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن خافَ أدْلَجَ[١]، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنَّة (رواه الترمذي في باب الزهد).

٢- عن أبي أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس شيء أحبَّ إلى الله من قطرتين: قطرة دموع من خشية الله وقطرة دم تُهرق في سبيل الله (رواه الترمذي في كتاب الجهاد).

٣- عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يَلِج[٢] النارَ رجلٌ بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضَّرْع[١] (رواه الترمذي في كتاب الجهاد).

---

(١) أدلج : سار في أول الليل.

(٢) يلج : يدخل.

openkandil.com

٤- عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه: إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية (رواه البخاري في غير موضع ومسلم في الصيام).

الآية الأولى في المؤمنين المتقين وأنهم يدعون ربهم الذي يستجيب دائما لدعائهم ويقول إنهم يبتغون إليه الوسيلة من قربه ويرجون منه الرحمة ويخافون عذابه. وقيل الآية في المشركين على أنها تهكم بهم واستهزاء، وحتى إن كانت في المؤمنين فإنها تعريض بالمشركين، ويهمنا ما جاء فيها من خوف العذاب، وعذابه- كما قال فيها- يحذره الطائعون والعاصون. والخوف في اللغة توقع مكروه بعلامات مظنونة أو متيقنة، وهو فريضة على كل مسلم إذ يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ويقول في سورة البقرة: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾. والآية فيها تشديد على رهبة الله والخوف، بما فيها من قَصْرٍ واضح، وفى سورة السجدة في وصف المؤمنين أنهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾. والخوف قسمان مذموم ومحمود، فالمذموم خوف العاصي الآثم الذي لا يكف عن عصيانه، والمحمود هو الذي يعمل صاحبه الأعمال الطيبة ويخاف أن لا يتقبلها الله منه، ولذلك قيل: لا يُعَدُّ خائفا من لم يكن للذنوب تاركا وهو ليس استشعارًا للفزع من عذاب الله، وإنما هو مراقبة المسلم لربه في أقواله وأفعاله مؤمنا بأنه سيحاسب يوم القيامة على ما قاله وعمل في دنياه، وكأنه ضرب من قلق المسلم على مصيره في آخرته مما يجعله يستشعر مخافة ربه. ويُروَى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه فكر ذات يوم في البعث والقيامة والموازين والحساب وطيِّ السماوات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانقضاض النجوم، فقال: وددتُ أني كنت خُضَرًا من هذه الخُضَر تأتى عليَّ بهيمة فتأكلني وأني لم أخلق». وهى صورة رائعة لما أودع القرآن الكريم في ضمير الصديق من الخوف الصادق من عذاب ربه، وهو المثل الكامل- بعد الرسول- للمؤمنين في التقوى والعبادة وأعمال البر والصالحات، ومع ذلك يرهب الله ويخافه خوفا شديدا. وفيه وفى أمثاله- أو قل في أشباهه- من الصحابة المتقين يقول الله تعالى في سورة فُصِّلَت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

---

(١) الضرع : مدرّ اللبن.

وتذكر الآية الثانية الخوف من مقام الرب، وكلمة مقام مصدر بمعنى القيام، ويمكن أن يكون المراد منها مراقبة الله للإنسان ووقوفه على كل ما يأتي من الأمور كما وصف نفسه في سورة الرعد بأنه ﴿قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ بمعنى أنه رقيب ومطلع على كل ما يعمله الإنسان في دنياه من خير أو شر ومجازيه به جزاءً عادلا، لا يظلمه فيه مثقال ذرة. ويمكن أن تكون كلمة مقام في الآية اسم مكان والمراد مكان الخلق وموقعهم للعرض يوم الحساب كما قال تعالى في سورة المطفِّفين: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وينبغي أن نعرف أن الله جَلَّ جلاله منَّزه عن القيام والوقوف والمكان، وكل ما جاء في القرآن مما قد يفيد تشبيها أو تجسيدا لله يؤوَّل، ولذلك يمكن أن تؤوَّل كلمة مقام في الآية بمعنى عظمة الله وجلاله فمن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ واستشعر عظمته وجلاله ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أي عن الملذات والشهوات ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي مسكنه الدائم الأبدي في الآخرة لما أدى لربه من العبادات والعمل الصالح، كما جاء في الحديث النبوي الأول: مَن خاف أدلج أي من خاف عذاب ربه جَدَّ في عبادته، حتى يبلغ المنزل أي حتى يبلغ الجنة. ويصورها الرسول بأنها سلعة ربانية وأن على من يريد شراءها أن يقدم لربه ما يستحقه من عبادة مخلصة صادقة.

والآية الثالثة تنوِّه بمن يصلون ما أمر الله به أن يوصل من أواصر الأخوة بينهم وبين المسلمين وأواصر القرابة بينهم وبين ذوى الرحم، وهم المسلمون حقا الذين ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾. والخشية أعلى درجة من الخوف، فهي خوف مع تجلة المخوف منه وتعظيمه، وهى أرخص من الخوف، إذ الخوف توقع الإنسان ما يكره من أي شئ، ولذلك يذكر في القرآن كثيرا مع العذاب، وهو في الآية مذكور مع سوء الحساب أي العقاب. وخشية المسلمين من الله هيبة وإخلاص له وامتثال لطاعته وطلب لحسن العاقبة مع تذليل النفس وكسر سورتها، ومع إقبال على ما عند الله، ومع عبادته حق العبادة، ومع شدة الخشوع والاستكانة والتذلل حتى ليذرفون الدموع إشفاقا على أنفسهم من لقاء ربهم أو من أن يكونوا مقصرين إزاء طاعته وعبادته. وينوه الرسول صلى الله عليه وسلم بدموعهم من خشية ربهم قائلا في الحديث الثاني: إنه لا شيء أحب إلى الله من قطرتين: قطرة دموع من خشية الله وقطرة دم تسيل في سبيل الله. والحديث النبوي يعلي قطرة الدمع مع خشية الله حتى ليجعلها مساوية لقطرة الدم الطاهرة تسيل من المجاهد الشهيد المدافع

عن دين الله. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثالث: لا يدخل النار رجل ذرَف الدمع من خشية الله، وأيَّد ذلك أو رأى أن يجعله أبديا فقال حتى يعود اللبن في الضرع أي ضرع الناقة الذي يُدرُّه، فإنه من المستحيل أن يعود إليه بعد الحلب كما لا يعود الوليد إلى بطن أمه.

والآية الرابعة تنوِّه بمن يخشون ربهم بالغيب أي دون أن يروه، فيقبلون على عبادته مخلصين لعظمته وجلاله. ويمكن أن يكون المراد بالغيب في الآية عذاب الله، فهم يخشونه دون أن يروا عذابه الغائب عن أبصارهم وأبصار الناس. ويمكن أن تشمل كلمة ﴿بالغيب﴾ في الآية كل ما غاب عن الإنسان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من عذاب النار ونعيم الجنة. وينبغي على المسلم أن يستشعر خشية الله في سره وعلنه، وبحق يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع: إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية. وعن ابن مسعود في صحيح البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له: اقرَأ عليَّ القرآن، فقلت يا رسول الله أقرأ عليك القرآن وعليك أُنزل؟ قال: إني أحبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ أي أتباعك ﴿ شَهِيدًا ﴾ قال: حَسبُك الآن، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان أي تسكبان الدمع سكبا. وقيل إزاء هذا الحديث إنه بكى لما تضمنت الآية من ذكر المحشر وشدة الهول فيه إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب، وقيل إنه بكى على المفرِّطين العاصين من أمته، وقيل بكى فرحا لشهادته على أمته، وقيل بل لفرط رأفته وشفقته على أمته. وفي بقية الآية الكريمة يعد الله من يخشونه بالغيب مغفرة، وهو يفتح أبواب مغفرته على مصاريعها في القرآن لكل من أخلصوا في عبادتهم له، وتضم الآية لمن يخشون ربهم بالغيب مع المغفرة أجرا كبيرا هو الجنة ونعيمها الخالد.

٢٥- التوبة

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

هود: ٣

٢- وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ

النور: ٣١

٣- وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ

الشورى: ٢٥

٤- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا

التحريم: ٨

الأحاديث

١- عن الأعزّ بن يسار المُزَنيّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة (رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء).

٢- عن أنس بن مالك الأنصاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده من أحدكم إذا سَقَط على بعيره وقد أضلَّه في أرض فلاة (رواه البخاري ومسلم في كتاب التوبة واللفظ للبخاري).

٣- عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم (رواه مسلم في كتاب التوبة).

obeikandi.com

٤- عن أبى موسى الأشعري قال النبي صلى الله عليه وسلَّم: إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل (رواه مسلم وابن حنبل في مسنده).

والله- تقدس اسمه- يدعو المؤمنين أن يستغفروه كلما أذنبوا ذنبا ويتوبوا إليه، والتوبة لغة معناها الرجوع، وشرعا معناها الرجوع عن معصية الله إلى طاعته أو عما نهى عنه إلى ما أمر به، وهى واجبة إزاء كل ذنب سواء كان من الكبائر أو الصغائر. وإذا كان الذنب متعلقا بحق من حقوق الله كترك الصلاة يجب على المذنب أن يكفَّ عنه وأن يندم أشد الندم على ارتكابه وأن يعقد عزمه على أن لا يعود إليه أبدا. وإن كان الذنب متعلقا بحق من حقوق الناس كأنْ كان مالا أو عقارا وجب رده- مع التوبة- إلى صاحبة بعينه أو بما يماثله إن كان قد تلف أو حدث فيه تلف، وإن كان قصاص قتل مكَّن أصحاب القتيل منه، إلا إن طلب منهم العفو، وقبلوا ذلك فأسقطوا حقهم. وإن كانت غيبة في حق شخص غائب وقذفا في حقه وجب أن يسترضيه ويقول إني نادم عليها ولن أعود إليها. وبالمثل شهادة الزور، وذنبها أعظمُ. وينصح الرسول صلَّى الله عليه وسلم صحابته في الحديث الأول باستغفار ربهم دائما، ويتلطف لهم- كعادته- ضاربا المثل بنفسه، وهو الرسول محبوب ربه الشفيع لأمته.

ويقول الله تعالى في الآية الثانية: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وهو بذلك يطلب من المؤمنين أن يتوبوا إليه من جميع الذنوب مهما كانت كبيرة أو صغيرة، واختلف الأسلاف هل إذا تاب الشخص من بعض الذنوب دون بعض هل تقبل توبته فما أذنب فيه أو لا تقبل ؟ قال المعتزلة أنها لا تقبل، وإنه لابد من الكف عن سائر الذنوب والتوبة منها حتى تتحقق التوبة فعلا ويتحقق صلاحه، وقال أهل السنة إنها تقبل فيما تاب عنه، وتبقى عليه التوبة في بقية الذنوب. وفى رأيي أن رأى المعتزلة أدق، لأن قبول التوبة معناه التوبة من الذنوب جميعا. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني إن الله أكثر فرحا بتوبة عبده من أحدكم وجد بعيره بعد أن ضَلَّ منه في فلاة، وفى رواية ثانية للحديث في صحيح مسلم: الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة مهلكة، فانفلتت الراحلة منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة واضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته. وبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده،

فأخذ بخطامها فرحا. والرسول صوَّر فرحة الله بتوبة عبده تصويرا عظيما بفرحة رجل يسير في فلاة مهلكة، وينزل عن ناقته لضرورة فتندُّ عنه، وعبثا يستطيع اللحاق بها وعليها زاده ويأوي من شدة الحرارة إلى ظل شجرة، فيضطجع فيه، وقد أيس من راحلته ومن حياته، وغلبه النوم، واستيقظ، وإذا راحلته عند رأسه وعليها زاده وطعامه وشرابه، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم إن الله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من فرح هذا الرجل برجوع راحلته وزاده إليه.

ويفتح الله- تبارك اسمه- في الآية الثالثة الأبواب على مصاريعها لقبول التوبة من عباده، واختلف الأسلاف هل قبول الله- جل شأنه- للتوبة قطعي أو ظني، وذهب المعتزلة إلى أنه قطعي لأنه وعد من الله، ووعده- مثل وعيده- لا يتخلف، ولو أن الله لم يقبل توبته لما تحقق وعده ولا تحقق للتائب عفوه. وذهب أغلب أهل السنة من مثل الأشعري والغزالى إلى أن قبول التوبة مقطوع به لتكراره في الذكر الحكيم. وذهب آخرون إلى أنه ظني، والأولى أنه يقيني ومقطوع به، ويقول الغزالى: إنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة هي مقبولة، إذ القلب خُلق سليما في الأصل فكل مولود يولد على الفطرة، وإنما تفوته السلامة بكدرة ترهقه من غبرة الذنوب وإن نور الندم يمحو عن القلب تلك الظلمة، كما يمحو الماء والصابون عن الثوب الوسخ. فمن توهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن توهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول، أو أن الثوب يغسل والوسخ لا يزول، نعم فقد يقول التائب باللسان تُبتُ ولا يُقلع فذلك كقول القصَّار (غاسل الثياب وصابغها) بلسانه غسلت الثوب، وهو لم يغسله، فذلك قصار (لا ينظف الثوب). وكما أن الآية تفتح الأبواب لقبول التوبة من عباد الله، كذلك الحديث الثالث وما يقوله الرسول صلَّى الله عليه وسلم فيه من أن المؤمنين لو لم يذنبوا لجاء الله بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم.

ويطلب الله في الآية الرابعة أن يتوب المؤمنون إلى الله توبة نصوحا، وقال عمر بن الخطاب، وأبيّ بن كعب إن التوبة النصوح هي التي يتوب صاحبها من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضَّرع. وقيل إن التوبة النصوح ينبغي أن تتضمن ثلاثة أشياء هي أن تشمل جميع الذنوب، وأن يُصِرَّ عليها التائب بعزيمة صادقة، وأن يجعلها خالصة لربه خشية وخوفا من عذابه وعقابه، وبذلك تسحق جميع الذنوب سحقا. ويصور الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث

الرابع أن الله- تبارك اسمه- يبسط يده في الليل ليتوب مذنب النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مذنب الليل. وبَسْط يد الله في الليل والنهار كناية عن طلبه من المذنب توبته. وفى الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال عشر مرات حين يصبح وحين يمسي أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب غُفرت ذنوبه، ولو كانت رمل عالج(١)، ومن قال سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غُفرت ذنوبه.

(١) رمل عالج : رمال كثيرة ببادية نجد.

obeikandl.com

٢٦- الغفران

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

١- وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠)

النساء ١١٠

٢- فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

الكهف ١١٠

٣- إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩)

فاطر ٢٩

٤- ۞ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)

الزمر ٥٣

الأحاديث

١- عن جابر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة (رواه مسلم في كتاب الإيمان، وفى نفس الكتاب وكتاب الإيمان في صحيح البخاري حديث مع معاذ يمائله مع زيادة الشهادة بأن محمدا رسول الله.

٢- عن أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم (رواه ابن حنبل في مسنده).

obeikandi.com

٣- وعن أنس أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي: قال الله تعالى: يا بن آدم ! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك كل ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك، يا بن آدم إنك لو أتيتني بِقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني ولم تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة (رواه الترمذي).

٤- وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي يحكيه عن ربه تبارك وتعالى، قال الله: أذنب عبدي، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال أي ربِّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رَبِّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له رَبًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. قال الله اعمل ما شئت فقد غفرت لك (رواه مسلم في التوبة، ورواه البخاري في التوحيد، واللفظ لمسلم).

والله- تقدس وتبارك اسمه- في الآية الأولى يقول إن من يعمل سوء أي عصيانا يعصى به ربه وأوامره ونواهيه، أو يظلم نفسه بكثرة معاصيه ثم يستغفر الله يجده ﴿غَفُورًا﴾ واسع المغفرة ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده، يستغفر لهم ويعفو عنهم، كما قال في سورة آل عمران: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا ﴾. والفواحش المعاصي الكبيرة، وظلم النفس بارتكاب كبائر الإثم، فمن اقترفوا الذنوب الكبيرة، وذكروا الله أي أوامره ونواهيه، فاستغفروا الله لذنوبهم ولم يصروا عليها بل عزموا على الإقلاع عنها، فإن الله يغفرها، إذ ندموا على إتيانها ولن يعودوا إليها. والله في القرآن الكريم يفتح أبواب مغفرته لعباده مهما أتوا من الكبائر والمنكرات، ماداموا اعترفوا له بذنوبهم واستغفروه بنية صادقة، ولا يخيب لهم استغفارا ولا رجاء، مهما كانت آثامهم، فأبواب مغفرته مفتوحة دائما.

ويقول ربّ العزة في الآية الثانية إن من يرجو لقاء ربه مؤمنا بالبعث والحساب وأن الله سيوفيه جزاءه على أعماله ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ يبتغى به وجه ربه. وفى الحديث أن أعمال الناس تُعرَض بين يدي الله يوم القيامة فيقول الله لملائكته: ألقوا هذا واقبلوا هذا، فتقول الملائكة عن الأول: يا رَبِّ، والله ما رأينا منه إلا خيرا، فيقول إن عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من

العمل إلا ما أريد به وجهي. والعمل الصالح والإيمان بالبعث لا يكفيان بل لابد من الإيمان بوحدانية الله، وأن لا يشرك العبد بعبادته أحدا. فذلك هو أصل الإيمان ويتفرع عنه الاعتقاد بالبعث والعمل الصالح. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الأول إن من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنَّة، وفى حديث له: من قال لا إله إلا الله وجبت له الجنة.ويقول في حديث معاذ: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرَّمه الله على النار.

ويقول الله- تقدَّس اسمه- في الآية الثالثة إن المؤمنين الذين يتلون القرآن الكريم ويؤمنون بشريعته، ويقيمون الصلاة أعظم العبادات البدنية، وينفقون مما رزقناهم من الأموال سرا وعلانية ابتغاء مرضاة الله يرجون بكل تلك الأعمال أن تكون تجارة رابحة عند الله، وأن ينالوا بها ما يستحقون من الأجر والثواب وأن يغفر الله لهم ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. ويكرر الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه أن المسلمين- كما في الحديث الثاني-مهما أخطأوا حتى لو ملأت خطيئاتهم ما بين السماء والأرض، ثم أنابوا إلى الله واستغفروه فإنه سيغفرها لهم. ويقول الله في الحديث القدسي الثالث: يا بن آدم إنك ما استمررت تدعوني وترجو مغفرتي فإني أغفر لك كل ما أذنبت، ولا أبالي، ويقول- عزَّ سلطانه- إن ذنوب ابن آدم لو بلغت ظاهر السماء المرئي أي ما بين السماء والأرض ثم استغفر الله فإنه يغفرها له. ويقول الله جَلَّ شأنه إن ابن آدم لو أتاه بما يملأ الأرض ذنوبا واستغفره ولقيه لا يشرك بعبادته أحدا ليأتينه بما يملؤها مغفرة.

والآية الكريمة الرابعة تدعو جميع العصاة من المؤمنين والكافرين إلى طلب المغفرة من الله، فإنه يغفر ذنوب العباد- مؤمنين ومشركين- إذا تابوا واستغفروا مهما كثرت ومهما أسرفوا على أنفسهم في ارتكاب المعاصي وثقلت عليهم ذنوبهم وما ارتكبوه من سيئات ويقول الله ﴿ لَا تَقْنَطُوا﴾ ولا تيأسوا (مِنْ رَحْمَةِ اللهَّ) فإنه لا يخيِّب لأي تائب مستغفر رجاءه في عفوه ومغفرته، إذ ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ لأنه هو ﴿ الْغَفُورُ ﴾ شديد المغفرة ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ واسع الرحمة. وفى الحديث أن شيخا كبيرا جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له: يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات فهل يُغفَرُ لي؟ فقال الرسول: ألست تشهد أن لا إله إلا الله، قال: بلى وأشهد أنك رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: قد غُفِرت لك غدراتك. وما أروع الحديث القدسي الرابع الذي حكاه

الرسول عن ربه قائلا: إن عبدا من عبادي أذنب ذنبا ودعاني قائلا: اللهم اغفر لي ذنبي فغفرته لـه. ثم عاد فأذنب ذنبا ثانيا، ودعاني أن أغفر له فغفرته له. ثم عاد فأذنب ذنبا ثالثا،ودعاني أن أغفره له فغفرته. ثم يقول الله: قد غفرت لعبدي فَلْيَفْعَلْ ما شاء أي مـا دام يـذنب ويـستغفر فـسأغفر لـه. ويُروَى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول عن الآية القرآنية الرابعة وما فيها مـن فـتح الله لأبواب مغفرته على مصاريعها للمسلم والكافر إنها تساوى عنده الدنيا وما فيهـا، وعـن عبـد الله ابن مسعود قال إنها أعظم آية في القرآن مفرحة لما تُفرح به قلوب العباد العصاة وغير العـصاة مـن دعوتهم القنوط واليأس من المغفرة الربانية.

obeikandl.com